أريك

نشرة غير دورية تصدرها
جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

رئيس التحرير :
د . محمد رفعت الإمام
مستشار التحرير للمواد الأرمنية :
بيــرج ترزيـــان
سكرتير التحرير :
على ثابت صبرى

العنوان : ٢٦ ش مراد بك ـ صلاح الدين
مصر الجديدة ـ القاهرة
تليفون : ٢٦٩٠٩٥٢٦(٠٢)
البريد الإلكترونى :
arekcairo@yahoo.com

رقم الإيداع : ١٨٣٧٤ / ٢٠١٠

إعداد وطباعة : ديزاين آرت
ت : ٨١ ٧١ ٩٤٢ ٠١٢٧ ـ ١٩ ٠٨ ٢٤٣٣
da_emad@yahoo.com

المحتويات

الموضـوع | الصفحة

السادة القراء الراغبون فى الحصول على هذا الإصدار مجاناً ، الرجاء موافاتنا بالبيانات الآتية :

الاســـــــم : ....
المـــهــــنــــة: ....
الـــعـــنـــوان : ....
البريد الإلكترونى : ....
الـــتـــلـــيـــفـــون : ....

افتتاحية العـدد

نشأة الطباعة الأرمنية
١٥١١ ـ ١٨٠٠ م

ترجمة : أحمد على بدوى

بقلم : مارال سمسار

ظل الأرمن ـ طيلة قرون من تاريخهم ـ خاضعين لسيطرة قُوَى أجنبية عن بلادهم ، فقد جعلوا من حرصهم على لغتهم ـ لغة الكتابة ولغة التعبير ـ سلاحاً رئيسياً ضد مشروعات الاستيعاب . وكان لسلاحهم هذا دور ـ لا يستهان به ـ فى الحفاظ على الهوية القومية .

وإلى ابتكار الأبجدية الأرمنية ـ نحو سنة ٤٠٦ م ـ على يد الراهب «مسروب ماشتوتز» وما تلا ذلك من «عصر ذهبى للأدب» ، يرجع انطلاق مسيرة الثقافة الأرمنية ؛ مما أدى إلى إحياء فكر الأرمن وتعبيرهم بلغتهم . كان هذا الابتكار من أقوى البواعث علي الصحوة الروحية للشعب الأرمنى ، ومُحفِّزاً لنضاله ضد سياسة الاستيعاب التى اتبعها من تعاقب على بلاده من الغزاة . ثم واصلت الطباعة ـ بدءاً من القرن السادس عشر ـ ذلك الدور ، والذي استكمله ما تطور من كتابات عادية .

المخطوطات الأرمنية التى نُسخت بين القرنين الخامس والسادس عشر ، تلك المخطوطات المحفوظة حالياً فى المتاحف والمكتبات الكبرى فى العالم ، ما برحت تفتن الناظرين بزخارفها الرائعة . ومن بين ما ذُكر من شهادات عنها ، بقى فى الأذهان ما نطق به الغزاة المندهشون ، بعد دخول طلائع العرب أرمينية للمرة الأولى : «لقد ولجنا بلد الكتب» !

وفقاً لما ذكره سابك المعادن «نيكولاى ميلسكو» المولود فى القرن السابع عشر ، فإن أرمنياً يُدعى «أنطون» كان من أوائل الرحّالة الذين أتوا إلى الغرب بتقنية الطباعة الصينية ذات الحروف المتحركة ، قبل «اختراع جوتنبرج» (آلة الطباعة) .

من جهة أخرى فإن الحروف الأرمنية طُبعت للمرة الأولى فى أول كتاب مصورَّ للرحلات ، والذى وضعه «برنهارد فون بريدرنباخ» بعنوان Peregrinatio in terram sanctum (باللاتينية ، أى «جولات فى الأراضى المقدسة») ، وصدر فى سنة ١٤٨٦ بمدينة «مايانس» بألمانيا ، حيث يُكتب اسمها Mainz باللغة الألمانية .

وفى بداية القرن السادس عشر ، كانت البندقية ملتقىً ثقافياً ومركزاً مهماً لنشاط الطباعة . فيها وُجد نحو مائتى مطبعة تصدر منها مؤلفات لا باللغة اللاتينية فحسب ، بل وكذلك بلغات أخرى ؛ كى يتم تصديرها للخارج . من البديه أن هذه التقنية الجديدة لم يكن ممكناً أن تفُوت التجار الأرمن ؛ الناشطين فى التجارة الدولية والحرف ، والذين اعتادوا التردد على ميناء البندقية . إن تلك المدينة الواقعة على بعد آلاف الكيلومترات من أرمينية ، هى التى ظهرت فيها الإصدارات الأولى باللغة الأرمنية بين سنتىّ ١٥١١ و ١٥١٣ .

ذاك العصر نفسه ، هو الذى فيه كانت أرمينية تَمُرُّ بواحدة من أشد مراحل تاريخها إظلاماً طيلة قرن ونصف قرن ؛ حتى توقيع معاهدة السلام بين إيران الصفوية والإمبراطورية العثمانية ، طفقت جحافل الغزاة تكتسح أراضى أرمينية والشراذمُ ـ القادمة من سهود آسيا القاحلة ـ أوْسَعَتْها سلباً ونهباً . حاق الخراب بعدد كبير من الأديرة ـ وهى مستودعات التراث الثقافى ـ وبات خطر الاستيعاب يتهدد المجتمع الأرمنى بشدة فى سياق كهذا ـ حيث يسود الظلام ـ تجئ نشأة الطباعة الأرمنية فتشكل حدثاً ثقافياً رئيسياً فى تاريخ الشعب الأرمنى .

رائد الطباعة الأرمنية هو «هاجوب ميغابارت» الذى نشر أول كتاب أرمنى فى البندقية منذ خمسمائة عام ؛ واضعاً بذلك أسس نهضة حداثية على مستوى كل من الثقافة والديانة والتعليم ، سواء فى جاليات المهجر الأرمنية أو فى أرمينية نفسها . قليل ما هو معروف عن أول أرمنى اشتغل بالطباعة ، والذى لم يُخْلف من المؤلفات غير خمسة : ١ ـ Urbatagirk (بالأرمنيَة ، أى «كتاب يوم الجمعة») ، وهو أول كتاب أرمنى ُطبع باللونين الأحمر والأسود ، وضم نصوصاً لأدعية ، وأخرى لكتابات فى موضوعات غير الدين . ٢ ـ Aghtark (بالأرمنية ، أى «تنبؤات») ، الذى يجمع بين كتابات فى التنجيم وأخرى فى علم الفلك ، ووصفات فى طب الشعوذة ، وبعض المعلومات عن النباتات الطبية . ٣ ـ Parzatumar (بالأرمنية ، أى «تقويم») ، وبضم نصوصاً تقليدية فى «السيمياء» والخرافات ، بمثلما وصفات متنوعة . ٤ ـ Pataragatetr (بالأرمنية ، أى «كتاب القداس») . ٥ ـ Tagharan (بالأرمنية ، أى «أغان») ، وهو كتاب به أنشاد .

بعد نصف قرن من التوقف عقب عمل «ميغابارت» ، أُطلقت فى البندقية مبادرة جديدة . فى تلك المرة كان مصدر المبادرة السلطات الدينية الأرمنية : فى سنة ١٥٦٢ قام المجمع الدينى القومى ـ الذى دعاه إلى الانعقاد الجاثليق «ميكائيل السباسطى» ، فى «سباسطا» بإيفاد أبجار تبير التوكاتى إلى الغرب . ويصل أبجار هذا إلى روما سنة ١٥٦٤ ـ ومعه ابنه «سلطان شاه» ـ ويحصل من البابا على تصريح بالقيام بحفر حروف طباعة أرمنية ؛ وفى هذا السبيل يستفيد من خبرة حرفيّى البندقية . وأقام مطبعته فى «مَضْيَفَةَ الكهنة» الملحقة بالكنيسة الأرمنية ؛ وهى موئل استقبال الرحّالة المارّين بالبندقية ، وحيث شارك كثير من الأرمن طواعية فى أعمال الطباعة . وفى سنة ١٥٦٥ صدر مؤلَّفان ، أولهما Kharnapntur Tumar (بالأرمنية ، أى «تقويم بلا ترتيب») ، والثانى Saghmosaran (بالأرمنية ، أى «سفر المزامير») . بالرغم فإذ لم يعد أبجار بقادر على مواجهة الرقابة التى زادت كنيسة روما من شدتها عقب انتخاب البابا «بيوس الخامس» ، اضطر ـ فى سنة ١٥٦٦ ـ إلى مغادرة البندقية إلى القسطنطينية ؛ حيث أقام مطبعته فى ملحقات كنيسة القديس نيقولا فى تلك المدينة ، التى وضعها بطريرك الأرمن «هاجوب» تحت تصرفه . ومن تلك المطبعة صدر ـ فى سنة ١٥٦٨ ـ أول كتاب مدرسى أرمنى مطبوع ، وكان عنوانه Pokr Kerakanutun (بالأرمنية ، أى «كتاب قواعد اللغة)») . ثم توالّت ـ حتى سنة ١٥٦٩ ـ ستة مؤلفات . هذا واستُوجب الانتظار طيلة أكثر من قرن ، كى يُشهد من جديد ظهور مطبعة أرمنية فى تلك المدينة ؛ وبالأخص بفضل جهود «يرميا تشلبى كيومورچيان» المؤرخ ـ وعالم الجغرافيا ـ ذى المستوى الرفيع ، والذى لم يدم نشاطه أكثر من عامين (بين سنتى ١٦٧٧ و ١٦٧٨) .

فى سنة ١٥٧٩ كان ابن أبجار التوكاتى ، سلطان شاه ـ الذى تلقى تعليمه فى روما وصار رئيس دير

القديسة مريم المصرية الأرمنى ـ قد كلف الحفار الفرنسى «روبير جرانچون» بحفر حروف أرمنية . هذه الحروف استخدمتها مطابع روما طيلة قرنين . وقد تعاون سلطان شاه مع الراهب «هوڤهانيس ترزنتسى» وقام فى عام ١٥٨٤ بترجمة إلى الأرمنية ونشر «التقويم الجريجورى» و «إعلان عقيدة الكنيسة الرومانية المقدسة» ، واللذين صدرا من مطبعة «دومينيك بازا» بروما . هذا حفَّز جاثليق «بيت قيليقية الكبير ، «أزاريا الأول الچولفاوى» على أن يبعث إلى روما بمخطوطة للكتاب المقدس بالأرمنية لطبعها . لكن مطلبه لم يلقَ استجابة ، واستقر هوڤهانيس ترزنتسى فى البندقية حيث صنع حروفاً أرمنية جديدة ونشر ـ فى سنة ١٥٨٧ ـ نسخة لسفر المزامير ، الذى طُبع فى مشغل «زوانى ألبرتى» موّلها تاجر أرمنى ، هو «خوچه شاهسولى» . بهذا النشر يسجل دخول تقليد الرعاية المالية فى تاريخ الطباعة الأرمنية .

خلال القرن الأول للطباعة الأرمنية ـ كان عدد من الكتب التى أصدرها ناشرون أوروبيون ، يحوى صفحات استُخدمت فيها الحروف الأرمنية من هذا القبيل نذكر مؤلف «جيوم بوستل» Linguarum duoecim characteribus differentium alphabetum الذى ظهر فى باريس عام ١٥٣٨ وكذلك الذى بعنوان Introductio in chaldicum linguam, syriacam atque armeniacam de decem allas linguas (باللاتينية ، أى «مدخل إلى اللغات الكلدانية والسريانية والأرمنية ، دون غيرها من اللغات») والصادر فى «بافى» (بإيطاليا) سنة ١٥٣٩ بمعرفة تيسكو أمبروزيو .

وفى النصف الأول من القرن السابع عشر ، استمر صدور كتب أرمنية من مطابع لم يَدُم بقاؤها طويلاً . من الأمثلة على هذا النشاط ما جرى فى «لڤوف» ـ المركز السياسى والفكرى والتجارى الكبير فى أوكرانيا فى تلك الفترة حيث كانت تعيش جالية كثيفة من الأرمن ؛ فثمة ـ فى سنة ١٦١٥ ـ أسس الراهب «هوڤهانيس كارماتانتس» مشغلاً جهز فيه حروفاً للطباعة . فى سنة ١٦١٦ أصدر ـ نسخة لسفر المزامير ، وتلاها ـ فى سنة ١٦١٨ ـ بكتاب للأدعية كان باللغة الأرمنية «كومان» (أو «كيبتشاك») ، وهى لهجة عامية استخدمها حينذاك أرمن أوكرانيا . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يُطبع فيها كتاب دينى أرمنى بلغة الحديث لا باللغة الفصحى Grabar (بالأرمنية) . كذلك طُبع فى ذلك المشغل «دليل طبى» .

فى زمن لاحق تلا مرحلة لڤوف ، طُبع عدد من الكتب الأرمنية فى روما وميلانو وباريس . معظم تلك الكتب كان موضوعها الدعوة إلى الدين ، ونشرتها «الرهبانية المقدسة للدعوة للإيمان» التابعة للكرسى المقدس . وهذا بهدف نشر المذهب الكاثوليكى بين الأرمن . كذلك رُصد بعض من الكتب المستهدف بها تأهيل المبشرين المكلّفَين بنشر الدعوة بين الأرمن ؛ فى مقدمتها معجم أرمنى لاتينى (Dictionarium Armeno-Latinum (باللاتينية)) لـ «فرانشيسكو ريفولا» ، صدر سنة ١٦٢١ من مطبعة «معهد أمبروزيانى بميلانو» وأعادت نشره فى سنة ١٦٣٣ المطبعة الملكية ، أو الوطنية بباريس ، وكتاب فى قواعد اللغة بعنوان Grammaticae et Logicae istituiones Linguae Literalis Armenicae (باللاتينية ، أى «قواعد اللغة الأرمنية الفصحى ومنطقها») به شروح باللاتينية ومجموعة مفردات أرمنية تُقابلها نظائرها اللاتينية ، لـ «كلمنتى جالانو» ، صدر فى روما سنة ١٦٤٥ .

خلال تلك الفترة كان ممثلو الكنيسة الأرمنية يبذلون جهوداً للنهوض بالثقافة القومية ، ولتحديث نظام التعليم فى أرمينية ؛ حيث كانت تفتقر إلى الكتب . فى

الثلاثينيات من القرن السابع عشر ، مثّل «دير القديس المخلِّص» فى «چولفا الجديدة» ببلاد فارس ، مركزاً فكرياً مهماً ؛ بجامعته ومكتبته . وجرت مفاوضات بين كهنة المدينة وتُجارها من ناحية ، وعاصمة البابوية من ناحية أخرى ؛ بهدف تأسيس مطبعة أرمنية فى مدينة البابوات ، كان هؤلاء التجار أنفسهم على استعداد للتكفل بنفقاتها كاملةً . وإذ لم يُكتب لتلك المفاوضات النجاح ، قام أسقف چولفا الجديدة «خاتشادور جساراتسى» بناءً على طلب من الجاثليق «موڤسيس تاتيڤاتسى» بتنفيذ هذا المشروع فى «دير القديس المخلِّص» ، مؤسساً بذلك فى سنة ١٦٣٦ أول مطبعة أرمنية فى بلاد فارس . وتنم الملاحظات الواردة فى الكتب المطبوعة عن وجود مصاعب كبيرة فى التصنيع حيث ذُكر أن الورق والأحبار والتجليد كان يقوم به الرهبان ، وكان الحرفُيون الأرمن بالمدينة يُعاونون فى صنع المناقش والقوالب ورؤوس الحروف . وإذ أخذ خاتشادور جساراتسى فى اعتباره تلك الصعوبات ، ورداءة ما نَتَجَ من إصدارات أولى وهى أربعة ، بدأت بنسخة لسفر المزامير (فى سنة ١٦٣٨) فقد أدرك استحالة القيام بطبع الكتاب المقدس بالأرمنية ، فى ذلك المشغل ، وأوفد الأب «هوڤهانيس الچولفاوى» إلى أوربا ، كى يستكمل علمه بالطباعة ويحصل على المواد والأدوات اللازمة للَصنعة . وبعد إقامة فى البندقية وروما ، استقر الأب هوڤهانيس فى ليفورنو حيث أسس فى هذه المدينة أول مشغل للطباعة . وقام هذا الراهب بطبع نسخة لسفر المزامير على سبيل التجربة فى سنة ١٦٤٤ قبل أن يعود فى سنة ١٦٤٦ إلى بلاد فارس ومعه ما يلزم من مواد وأدوات للطباعة . وعندئذ أخذ الأب هوڤهانيس على عاتقه مشروع طبع الكتاب المقدس بالأرمنية ، الذى لم يكتمل . وفى سنة ١٦٥٠ توقف نشاط مطبعة چولفا الجديدة ، بعد أن نُشرت منها خمسة إصدارات : ١ ـ سفر المزامير . ٢ ـ كتاب القُدَّاس . ٣ ـ سير آباء الكنيسة . ٤ ـ كتاب الصلوات . ٥ ـ تقويم . ومن هذه المطبعة صدرت بضعة كتب ، فى الثمانينيات من القرن السابع عشر . ثم بعد توقف دام ما يربو على مائة وتسعين عاماً ، استأنفت المطبعة فى سنة ١٨٧٧ نشاطها .

فى سنة ١٦٣٧ كان الراهب «هوڤهانيس أنجوراتسى» ، أوفد بطريرك إسطنبول «زكريا ڤانتسى» المترجم السابق لسفير البندقية فى إزمير ، الذى ذهب إلى روما بهدف طبع الكتاب المقدس بالأرمنية ، دون أن يُسجل نجاحاً . واستقر الراهب فى البندقية ، وفى نهاية الأمر نَشرَ نسخة لسفر المزامير ، ومؤلِّف «نرسس شنورهالى» الذى بعنوان Yisus Ordi (باللاتينية ، أى «تعاليم يسوع المسيح») من مطبعة «ساليكاتا» فى سنتىّ ١٦٤٢ و ١٦٤٣ .

وفى سنة ١٦٥٦ أوفد الجاثليق «هاجوب الرابع الچولفاوى» إلى أوربا الكاتب «ماتيوس تسارتسى» ، لنشر أول إصدار للكتاب المقدس بالأرمنية . وقد وصل إلى البندقية ، حيث كان يبغى أن يُؤسس مشغله للطباعة . وبعد انتظار دام سنتينَ فى البندقية وروما ، اصطدم تسارتسى بمحاكم التفتيش الكاثوليكية ، ولم يتوصل إلى الحصول على تصريح بمواصلة مهمته . ذهب إلى أمستردام ، ملاذ طريدى روما من الناشرين ، وفى سنة ١٦٥٨ استقر فى «مضيفة الكهنة» الملحقة بالكنيسة الأرمنية فى «بومسلوت» ، وكَلّف «كريستوفل فان ديك» الحفار الشهير ، الذى عمل لدى آل «إلزفييه» بتصنيع أختام وقوالب للحروف الأرمنية . ومشغله المعروف بإسم سورب إيتشميادزين وسورب سركيس زوراڤار ، استفاد من إعانات التجار الأرمن المقيمين هناك . لكن وافته المنية فى سنة ١٦٦١ ،

قبل أن يتم طبع مؤلف «نرسيس شنورهالى» الذى بعنوان Yisus Ordi (السالف ذكره) على سبيل التجربة. عندئذ صارت المطبعة تحت إشراف أحد تجار چولفا الجديدة ، هو «أڤيديس غليتشنتسى» ، الذى أتم ما كانت تجرى طباعته . قبل أن يُسلِّم المشغل إلى الراهب «جرابيد أندرياناتسى» ، الذى نشر بضعة كتب ، وشرع فى الإصدار الأول للمخطوطة الإغريقية الـ «تروبولوجيون» (كتاب الترانيم) ؛ بعد أن كلف بحفر مدونات موسيقية للأنغام .

فى الوقت ذاته أبرم الأسقف «ڤوسكان يرڤانتسى» شقيق أڤيديس غليتشنتسى المنتدب من الجاثليق لاستكمال عمل تسارتسى ، أبرم عقدا فى ليفورنو مع ثلاثة من التجار - من أهالى چولفا الجديدة أصلاً - لتمويل طبع الكتاب المقدس بالأرمنية ، ثم انتقل إلى أمستردام فى سنة ١٦٦٤ حيث استكمل مع أندرياناتسى طبع الـ «تروبولوجيون» . وقد كَلّف الأسقف بحفر الحروف المعروفة بإسم «حروف نوترجير» المقرَّرة لطبع الكتاب المقدس بالأرمنية ، وتولى أعمال المقارنة والمناظرة بمخطوطة «هتوم» للكتاب المقدس وبترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية ، المعروفة بإسم La Vulgate Latine . أخيراً أصدر الأسقف ڤوسكان يرڤانتسى بين سنتىّ ١٦٦٦ و ١٦٦٨ النسخة الأولى للكتاب المقدس بالأرمنية مطبوعة ، وهو حدث رئيسى ، حدث يمثل اكتمال ستة عقود من الجهد وعشرات المساعى من جانب الجثالقةالأرمن . ومن بين المؤلفات الأخرى التى طُبعت بإشراف الأسقف ڤوسكان يرڤانتسى فى أمستردام ، يُذكر الإصدار الأول لـ «التاريخ» الذى كتبه أراكيل دافريچتسى ، وكتاب «الجغرافيا» المنسوب إلى «موڤسيس خوريناتسى» ، و«حكايات» لـ «ڤارتان أيكجتسى» ، ومَن وضعه هو نفسه كتاب فى قواعد اللغة ، وكتاب فى الأبجدية . وعلى التوالى ينتقل الأسقف ڤوسكان يرڤانتسى بمطبعته من أمستردام إلى ليفورنو سنة ١٦٦٩ ثم إلى مارسيليا سنة ١٦٧٢ ، حيث نال تصريح الملك لويس الرابع عشر بالاستعانة بخدمات «المسابك الملكية» . بالرغم من ذلك فقد أضناه نقص السُبل المادية ، والرقابة ، وقضية رفعها عليه شريك له ؛ متهماً إياه بالهرطقة ، وفى سنة ١٦٧٤ قضَى نحبه . لكن واصلت المطبعة عملها بصفة تجارية ، حتى سنة ١٦٩٥ ، ثم انتقلت إلى القسطنطينية .

إن لمشغل الأسقف ڤوسكان الطباعى مكانة مركزية فى تاريخ الطباعة الأرمنية ، بفضل العدد الكبير من الإصدارات ومن نُسخ كل إصدار ، وهى إصدارات كان من بينها النشرات الأولى للكتاب المقدس ولـ «التروبولوجيون» ، وعدد - لا يُستهان به - من الكتابات فى موضوعات غير ذات صلة بالدين . كذلك يُستوجب أن يُرصد أن أول كتاب باللغة الأرمنية الحديثة Achkharhabar (بالأرمنية) صدر فى سنة ١٦٧٥ من مطبعة سورب إيتشيمادزين وسورب سركيس بمارسيليا ، وكان عنوانه «فن الحساب الكامل المتكامل» وموجّهاً لخدمة التجار الأرمن .

فى سنة ١٦٨٥ ذهب «ماتيوس هوڤهانيسيان الڤاناندى» - الذى تلّقى تأهيلاً فى مشغل ڤوسكان يرفانتسى بمارسيليا - إلى أمستردام ، حيث استعان بالحفّار «نيقولاس كيس» فى تصنيع مصفوفة جديدة من الحروف ، وأعاد تأسيس مطبعة . وكبير الأساقفة «توماس نوريچانيان الڤاناندى» - وهو من أقرباء ماتيوس هوڤهانيسيان - راح يجوب بعض بقاع أوربا ، بحثاً عن مصادر للتمويل . وهو الذى تولى إدارة المطبعة سنة ١٦٩٥ . وقد لحق به غوجاس وميكائيل ، ابنا أخيه . من ثم بدأت مرحلة من النشاط المكثف ، بصدور نصوص فى الجغرافيا والتاريخ والفلسفة

والدين . . . إلخ . ومن بينها كان مؤلَّف لموفسيس خوريناتسى هو «تاريخ أرمينية» (فى طبعته الأولى) ، وأول خَريطة للكرة الأرضية ، أعدها غوجاس الڤانانـدى وحفرها الأخوان «أدريان» و «بيتر» ابنا «داميان شونبيك» . من ثم أتت هذه الأسرة من الطابعين الراجع أصلهم إلى ڤاناند بانفتاح على العلوم ـ بفضل ماكان لدى أفرادها من معارف شخصية ، مثلما بفضل ما قاموا به من ترجمات ـ وأسهمت فى تكوين صفوة جديدة رفيعة العلم . ووفقاً لبعض المصادر ، عبثاً بذل كبير الأساقفة توماس جهوده بهدف نقل مطبعته من أمستردام إلى أرمينية . وبعد وفاته فى سنة ١٧٠٨ واصلت المطبعة نشاطها بإدارة غوجاس . وإذ لم يعد هذا قادراً على مواجهة ما هو مُتطلب من نفقات ، اضطر فى النهاية سنة ١٧١٨ إلى التخلى لدائنيه عن حروف مطبعته وأدواتها . وإلى أولئك الدائنين جاء فى سنة ١٧٢٩ تاجر أرمنى ، فاشترى الحروف والأدوات ؛ لحساب القس «مخيتار السباسطى» .

كذلك لا تفوتنا الإشارة إلى مطبعة التاجر «نهابيد الأكوليسى وإلى تلك التى كانت لـ «كاسبار شهريمانيان» ، واللتين كانت فى البندقية فى سنتىّ ١٦٨٦ و ١٦٨٧ . كذلك ففى خلال القرن السابع عشر ، صدرت عدة مؤلفات بالأرمنية ، من مطابع الطابعين الإيطاليين والمؤسسات الكاثوليكية .

وفى القرن الثامن عشر شُهد ازدهار كبير للطباعة الأرمنية ، بالانتقال التدريجى لما كان فى الغرب ـ من مراكز النشر ـ إلى الشرق . فى القسطنطينية استقر نحو عشرين من مشاغل الطباعة ، وعمل أصحابها على توفير الكتب للمجتمع المحلى ، وكذلك لأرمينية . كذلك صارت القسطنطينية مركزاً لتجارة الكتب ؛ إذ كان لمتاجر الكتب تأثير على الإنتاج ، بحكم ما أوصى به أصحابها الطابعين وكلفوهم به .

كان من ورث أدوات مشغل يرميا تشلبى ، هو «كريكور مارزڤانتسى» الذى تأهل لتقنيات صنع الورق ولفنَّى الخط والزخرفة فى دير «أملوردى» (أو «أمردول») الذى كان موقعه فى «باغيش» وهو أول حفار للحروف الأرمنية فى القسطنطينية (سنة ١٦٩٨) . وقد نشر ـ حتى سنة ١٧٣٤ ـ نحو خمسة عشر كتاباً ، زيَّنها برسوماته هو نفسه . ومن بين نتاج عمله الإصدار الأول لـ «سجل قدامى الشهداء Haysmavourk (بالأرمنية) الذى كرّس له اثنتى عشرة سنة من سنوات حياته ، والإصدار الأول لـ «تاريخ الأرمن» الذى وضعه «أجاثانج» بتكليف من جاثليق إتشميادزين «الإسكندر الأول» وتكفل بنفقات نشره تجار أرمن كان مقر نشاطهم «أكوليس» .

فى سنة ١٦٩٩ أنشأ فى القسطنطينية «أستڤادزادور أبوتشختسى» ـ الذى كان يعمل بمطبعة كريكور مارزڤانتسى ـ مطبعته الخاصة . ونشر أكثر من ثمانين مؤلفاً ـ للكنيسة الأرمنية أساساً ـ بما فى ذلك النص الكامل لكل من «كتاب المراثى» لـ «جرجوار الناريجى» ، للمرة الأولى (على مدى سنتىّ ١٧٠١ و ١٧٠٢) وكتاب «الأسئلة والأجوبة» Girk hartsmans (بالأرمنية) لـ «كريكور داتڤاتسى» (سنة ١٧٢٩) ، و«تعريف الفلسفة Girk Sahmanats (بالأرمنية) للفيلسوف «داود الذى لا يُقهر (١٧٣١) David l'invincible . وصار الطابع الأشهر فى أسطنبول . وفى الخمسينيات من القرن الثامن عشر ، تولى إدارة المطبعة نجله هوڤهانيس ، ثم تعاقب على إدارتها ـ بدءاً من سنة ١٧٧٦ ـ طابعون آخرون . وفقاً لبعض المصادر ، فإن هذه المطبعة قد أُعيد ابتياعها من آل «أرابيان» ، وهم أسرة من الطابعين المشهورين ؛ واصلوا نشاطهم حتى الخمسينيات من القرن التاسع عشر .

من بين المطابع النشطة الأخرى فى القسطنطينية خلال القرن الثامن عشر ، تُذكر مشاغل الطباعة التى كانت لكل من «سركيس تبير» وابنه «مارديروس» (بين سنتىّ ١٧٠١ و ١٧٥٨) ، و «بدروس لاديناتسى» (بين سنتىّ ١٧٠٤ و ١٧١٢) والأخوين «بارسيغ» و «هاجوب سباسطاتسى » (بين سنتىّ ١٧٣٥ و ١٧٥٠) و «تبير أبراهام تراجاتسى» (بين سنتىّ ١٧٣٥ و ١٧٤٦) . ومن جهة أخرى أسس «ماهدسى مارجوس» ـ فى سنة ١٧٥٩ ـ مطبعة فى إزمير ، حيث نشر ثلاثة أعمال حتى عام ١٧٦٢ منها الإصدار الأول لكتاب Yeghts Aghandots (بالأرمنية دحض الملل لكاتبه يزنيج جوغباتسى .

على أن أبرز شخصية فى تلك الحقبة كان الطابع والناشر «بوغوص أرابيان» الذى ذاع صيته بدءاً من الستينيات من القرن الثامن عشر . فى سنة ١٧٧٤ دعاه «هرقل الثانى» ملك «چورچيا» إلى «تبليسى» ، لصَبّ حروف للُّغة الچورچية . ابتكر أيضاً العديد من الحروف الأرمنية وكذلك الحروف المعروفة بإسم «طليق» ولا نسيج «للكتابة العثمانية» . وقد عُين مديراً لمطبعة البلاط ، بأمر السلطان . وطيلة سنين عديدة ، حاز أرابيان امتياز صب الحروف التركية فى اسطنبول . وقد ظلت مطابع بوغوص وأبنائه نشطة طيلة سبعين سنة ، خلالها أخرجت مائة وخمسين إصداراً ، بما فيها أول جريدة باللغة الأرمنية فى اسطنبول وفى الإمبراطورية العثمانية بأجمعها (والتى كانت بعنوان Lro Kir Medzi Derutian Osmanian : ترجمة للجريدة الرسمية «تقويم الوقائع» سنة ١٨٣١ .

فى سنة ١٧٧١ ـ بعد العديد من مساعى غير مجدية نجح الجاثليق «سيميون الأول يرڤانتسى» فى تأسيس مطبعة بإتشميادزين ـ كانت الأولى فى أرمينية ـ والتى تكفل بنفقاتها تاجر ثرى من أبناء چولفا الجديدة هو «ميكائيل تشاكيكنتس» ، وكان مقامه فى «مدراس» بالهند ؛ وبفضل عون هذا الأخير أنشأ الجاثليق سيميون فى سنة ١٧٧٦ مصنعاً للورق . ومن هذه المطبعة التى سُميت بإسم «القديس كريكور المُنوِّر» ، صدر فى سنة ١٧٧٢ أول كتاب نُشر فى أراضى أرمينية ، وهو كتاب أدعية كان بعنوان Zbosaran Hogevor أو Pokrik Tagharan لكن فى أثر الحروب والخسائر الناتجة عن السلب ، ففى سنة ١٧٩٣ أوقفت مطبعة إتشميادزين نشاطها ، بعد أن طُبعت بها برعاية الجاثليق «سيميون الأول» و «غوكاس كارنتسى» كُتب بلغ عددها ثلاثة عشر . ثم استأنفت نشاطها فى سنة ١٨١٩ .

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان التجار الراجعة أصولهم إلى چولفا الجديدة قد كَوَّنوا فى الهند مجتمعات مزدهرة . وإذ كانوا منشغلين بما يجرى لبنى جلدتهم فى أرمينية ، لم يترددوا فى الإسهام فى التنمية الثقافية للوطن الأم . من جهة أخرى فقد عملت مجموعة من المثقفين الليبراليين عُرفت بإسم «مجموعة مدراس» ، تكونت فى بداية السبعينيات من القرن الثامن عشر على التحرر السياسى لأرمينية ، وعلى تطوير الأسس الأيديولوچية لدولة مُقبلة . ومن بين أفراد هذه الجماعة ، كان التاجر المتبحّر فى العلوم «شاهامير شاهاميريان» ؛ الذى أنشأ فى سنة ١٧٧٢ أول مطبعة فى مدراس . من تلك المطبعة صدرت مؤلفات كان لها دور كبير فى تطور الفكر السياسى الأرمنى ؛ منها يُذكر Nor tetrak vor gotchi hordorag (بالأرمنية ، أى الدفتر الجديد المسمى بـ «الوعظ» المنسوب إلى موڤسيس باغراميان سنة ١٧٧٢ . وخاصة Vorogayt Parats أى «كمين الكبرياء» لشاهامير شاهاميريان الذى نُشر

بإسم ابنه «هاجوب» سنة ١٧٧٣ / ١٧٨٨ والذى يُمثل نموذجاً فريداً لدستور كامل لجمهورية أرمينية المُرتقبة حينذاك ، مبنياً على المبادئ الأساسية للفصل بين السلطات ، وبين القانون الطبيعى .

من الشخصيات البارزة الأخرى فى تاريخ الطباعة الأرمنية هو الأب «هاروتيون شماڤونيان» الذى أسَّس فى سنة ١٧٨٩ مطبعته فى ساحة كنيسة «القديسة العذراء» بمدراس l'Eglise Sainte Astvatsatsin de Madras . وإليه يرجع شرف كونه أول محرر لدورية باللغة الأرمنية ، «أزدارار» فى سنة ١٧٩٤ صدرت شهرياً فى ثمان وأربعين صفحة باللغة الأرمنية الفصحى gabar ووزعت على ٤٠ مشتركاً وتوقفت بعد ١٨ إصداراً فى عام ١٧٩٦ .

وعقب هذا أُنشئ – وعلى الأخص فى «كلكتا» – العديد من المطابع الأخرى ، والتى كان لها خلال القرن التالى (التاسع عشر) نشاط مكثف ومتنوع .

وبدءاً من النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان لمؤسس «رهبانية المخيتاريين» الأباتى مخيتار السباسطى ولمُريديه دور مشهود فى الحفاظ على التراث الثقافى الأرمنى وتجديده . هذه الرهبانية – التى استقرت فى جزيرة سان لازار بالبندقية سنة ١٧١٧ مارست وطورت نشاطاً مكثفاً فى الطباعة ، فى إطار مشروع واسع يستهدف إنماء الوعى القومى وتكوين صفوة من المثقفين العلمانيين بين الأرمن . وقد صدرت كتبها أول ما صدرت من مشاغل الطابعين الإيطاليين بالبندقية ، وبالأخص من مشغل لـ «أنتونيو بورتولى» الذى صار هو الناشر المعتمد ، وقد شملت كتباً فى الدين ودراسات فى علم «الأرمنيات» ومُلخَّصات للمقررات المدرسية ، وتقاويم . . . إلخ . ومن بين أهم المؤلفات «المعجم الأرمنى» (قاوس هايجازيان للأباتى مخيتار ١٧٤٩ و ١٧٦٩) وأول ما كُتب بعنوان «تاريخ أرمينية» للأب «ميكائيل تشامتشيان (بين سنتى ١٧٨٣ و ١٧٨٦) . من جهة أخرى كشف المخيتاريون للمستشرقين الأوربيين عن كنوز مخبوءة من آداب آباء الكنيسة الأرمنية ، ثم بالأخص عن أعمال «مفقودة» لكل من «فيلون» السكندرى و«يوسبيوس» من قيصرية . وفى سنة ١٧٨٩ أنشأت رهبانية المخيتاريين مطبعتها الخاصة ، التى صارت فى القرن التاسع عشر واحدةً من أشهر مراكز الطباعة فى أوربا . وبين سنتىّ ١٧٩٩ و ١٨٠٢ أصدرت الرهبانية دوريتها الأولى : Darekrutyun ، الثانية بعد Aztarar فى «مدراس» ، بفارق هو أن لغة الأخيرة كانت الأرمنية الحديثة . وقد أعقبتها دوريات أخرى كثيرة خلال القرن الثامن عشر .

أما الفرع النمساوى فى سلك «المخيتاريين» ، الذى تأسس فى تريست سنة ١٧٧٣ – ثم انتقل إلى ڤيينا سنة ١٨١٠ – كان هو الآخر قد أنشأ مطبعته فى عام ١٧٧٦ . وشملت المؤلفات الصادرة من مطبعة تريست كتباً فى الدين وترجمات لمؤلفات فى غيره من الموضوعات ، وكتباً مدرسية منها بعض نصوص المقررات الدراسية بالأرمنية ؛ الموجهة للأطفال المتحدثين باللغة الألمانية أو بلغة المجر والمقيدين بمدارس السلك (المخيتارى) بإقليم «ترانسلفانيا» . ثم فى القرن التاسع عشر أدت مطبعة ڤيينا دوراً مهماً بفضل إصداراتها المتعددة بمختلف اللغات .

وفى الإمبراطورية الروسية أُنشئت فى سنة ١٧٨١ أول مطبعة أرمنية على يد «كريكور خالداريانتس» ، التاجر الراجع أصله إلى چولفا الجديدة . وقد قام بحفر حروف أرمنية فى لندن ، وأحضرها إلى «سان بطرسبرج» حيث أقام مشغله تحت رعاية الأسقف «هوڤسيب أرغوتيان» ، مطران الطائفة الأرمنية فى

روسيا . بعد ذلك ببضع سنين ، صار المشغل تحت رعاية جاثليقية إتشميادزين ، إثر شراء الأسقف أرغوتيان إياه بفضل هبات من أرمن روسيا . وفى سنة ١٧٩٠ نُقلت المطبعة إلى «ناخيتشيڤان الجديدة» بالقرب من «روستوف على نهر الدون» ، ثم إلى «أستراخان» فى سنة ١٧٩٦ .

وشهد القرن التاسع عشر تضاعف عدد المطابع التى بلغت معدلات إنتاجها مدىً مدهشاً فى المجتمعات الأرمنية النائية الأقل عدداً . وفى خلال النصف الثانى من ذلك القرن ، تواكب بهذا النشاط تطور فى الصحافة وفى شبكة المدارس الأرمنية بالإمبراطورية العثمانية وبأراضى «ما وراء القوقاز» ، وبزوغ صفوة من المثقفين ؛ مهدوا الطريق للصحوة الثقافية والسياسية للمجتمع الأرمنى ؛ (Zartonk) بالأرمنية * .

* المقال للكاتبة مارال سمسار رئيسة تحرير دورية «أرتساكانك ـ ايكو» (الصدى) التى تصدر كل شهرين بچنيف باللغتين الأرمنية والفرنسية ، عدد خاص أكتوبر ٢٠١٢ .

دراســـــات

دراسات أكاديمية فى الجامعات المصرية

شهدت الآونة الأخيرة طفرة فى الدراسات الأكاديمية بالجامعات المصرية المتعلقة بالأرمنيات عبر العصور لاسيما جامعات الإسكندرية ودمنهور وعين شمس والقاهرة . وفى الجامعة الأخيرة ، كلية الآثار ، قسم الآثار الإسلامية ، سجلت الباحثة نفرتارى ياسين محمد أحمد موضوعاً لنيل درجة الماجستير فى الآثار الإسلامية تحت عنوان «مدرسة التصوير بأرمينية خلال الحكم الإسلامى فى ضوء مخطوطات العهدين القديم والجديد» تحت إشراف كل من د . إيهاب أحمد إبراهيم أستاذ مساعد بكلية الآثار جامعة القاهرة ، د . محمد رفعت الإمام أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة دمنهور ، د . أسماء حسين عبد الرحيم مدرس بكلية الآثار جامعة القاهرة .

وفى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة دمنهور تعكف الباحثة علية حلمى على إعداد خطتها لأطروحة الماجستير فى الآداب فرع التاريخ الحديث والمعاصر ـ نظام الساعات المعتمدة ـ عن موضوع «اتجاهات الرأى العام المصرى تجاه القضية الأرمنية ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦» تحت إشراف د . محمد رفعت الإمام أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر بالكلية . وتدور فكرة الدراسة حول تحليل مضمون الصحافة المصرية بلغتها العربية والإنجليزية والفرنسية بشأن القضية الأرمنية . وتجدر الإشارة إلى أن مصر امتلكت آنذاك ثروة صحافية ثرية ومتنوعة تعبر عن كل الاتجاهات من قبيل «الأهرام» و «المقطم» و «المؤيد» و «مصر» و «الوطن» و «الأهالى» و «الاتحاد المصرى» و «المحروسة» .

طباعــــــــة

الأرمـن رواد صناعــة الكلمــة

بقلم : كارو قيومچيان

بمناسبة الذكرى الخمسمئة للطباعة تحتفل أرمينية هذه السنة بمناسبتين مهمتين فى وقت واحد . وتتقدم إلى العالم كدولة وشعب محب للكتاب وشغوف بصناعة الكلمة ، فبداية صناعة الكتاب بأسلوبه الحديث على طريقة جوتنبرج للطباعة بالأرمنى قبل ٥٠٠ سنة ، والتى يُحتفل بها هذه السنة . هكذا ، كان لأرمينية سبق الريادة بين الكثير من الدول والشعوب التى كان لها حضور وإمكانات أكبر بكثير من هذه الدولة الصغيرة فى تلك الأزمان .

إن تبنى الأرمن المبكر فكرة استخدام المطابع الحديثة والميّسرة لطباعة الكتب ليس له تفسير آخر غير ولعهم الشديد بالعلم والثقافة وعلوم الدين والرغبة فى نشر المبادئ الأخلاقية السامية . كذلك هو وسيلة لحفظ الإرث الحضارى الثمين للثقافة والعلوم الإنسانية التى خلّفها الأجداد منذ اختراع الأبجدية الأرمنية عام ٤٠٥ . وكان قد رسّخها الشعب بخط اليد للحفاظ عليها وصونها كأمانة نفيسة على رغم الظروف السياسية والأمنية الصعبة التى فُرضت عليه لقرون طويلة . وأبرز الكوارث إحراق وإتلاف أكثر من ١٠ آلاف كتاب ووثيقة أرمنية كانت محفوظة فى مكتبة بغداد أثناء غزو المغول إيّاها .

تحتفل مدينة يريڤان عاصمة أرمينية باختيار اليونيسكو إياها هذا العام كعاصمة للكتاب العالمى ٢٠١٢ وهى المناسبة الثانية التى أريد الاحتفاء بها أيضاً إلى جانب ذكرى الخمسمئة سنة للطباعة .

ففى يريڤان متحف المخطوطات «ماديناتاران» ذات المبنى المعمارى الفخم والموقع المميز ، والذى يزخر بكمية كبيرة من كنوز المنمنمات والأيقونات والكتب والوثائق المصوَّرة والنادرة وذات القيمة المادية والمعنوية العالية حيث يحتوى على كثير من المخطوطات السريانية واليونانية والرومانية واللاتينية والعربية والعبرية والفارسية والإثيوبية والهندية فى مجالات التاريخ والطب والفلسفة والآداب والعلوم والفلك والكيمياء والموسيقى والحقوق والحساب . كذلك ، تُوجد مخطوطات لشعوب سادت ثم بادت وكتب نادرة محفوظة منذ قرون . كما تُوجد نسخ نادرة من القرآن الكريم . وأبلغ ما يُمكن الاستشهاد به فى هذا

الخصوص هو كلام القادة العرب الفاتحين منذ حوالى ١٤٠٠ سنة حين قالوا وبدهشة «إننا الآن دخلنا مملكة الكتب» . إن الأرمن هم الشعب الوحيد الذى يحتفل بيوم للمترجمين ، وهذا اليوم يكون بمثابة «عيد قومى» ما يدل على مدى محبتهم للكتاب والكلمة الجميلة فهم يُقدِّسون المترجمين مثلهم مثل الأبطال وبفضل الترجمة تعرّفت الشعوب على آفاق علوم ومعارف وثقافات الشعوب الأخرى وأطباعها وإنتاجها الفكرى ، بل وزاد عليها . كما أن هنالك الكثير من الترجمات الأرمنية لنصوص مفقودة فى لغتها الأصلية .

إن الكتاب الأرمنى هو جزء مهم فى فسيفساء الحضارة العالمية وله مكانة خاصة فى حفظ الذاكرة الإنسانية على مر القرون . فالكتاب والطباعة لعبا دوراً مميزاً فى نهضة الشعب وثقافته . وقد أسهم هذا فى تحسين مداركه من الناحية الثقافية والإنسانية ، علماً بأن طباعة أول كتاب أرمنى تمت فى مدينة البندقية بإيطاليا عام ١٥١٢ ؛ أى بعد ٦ عقود فقط من اختراع الطباعة فى ألمانيا . وهذه تُعد فترة قياسية فى معايير تلك الأزمان . ومن ثم انتشرت الطباعة فى شكل مكثف فى شتى المجالات ما أدى إلى تغيير نمط تفكير النخبة والعامة وتحسينه معاً وكذلك تقدير قيمة الكلمة ومعناها . فمنذ طباعة أول كتاب عام ١٥١٢ ولغاية ١٩٢٠ تمت طباعة ٢٠ ألف كتاب من أهم الكتب العالمية باللغة الأرمنية فى كل من مدينة مدراس بالهند وفى روما وفيينا ثم باريس وأصفهان وأمستردام وسانت بطرسبورج وإسطنبول وتبليسى وشوشى ومن ثم يريڤان .

كما أن للأرمن باعاً طويلة منذ قرون فى الكتابة والطباعة باللغتين الأرمنية والعربية فى المدن العربية مثل القدس وحلب وبيروت ودمشق وبغداد . فقد كان رزق الله حسون الحلبى الأرمنى الأصل ١٨٢٥ ـ ١٨٨٠ ، أول من طبع جريدة عربية بمفرده وهى جريدة «مرآة الأحوال» التى صدرت فى إسطنبول عام ١٨٥٥. بذلك ، يُعد حسون جد الصحافة العربية كما قال عنه الكونت فيليب دى طرازى المختص الأول فى تاريخ الصحافة العربية . وللعلم كانت مطبعة بطريركية الأرمن فى القدس أول مطبعة على الإطلاق فى المدينة وقد طُبعت فيها آلاف المطبوعات بلغات عدة وهى لا تزال تعمل لغاية الآن .

إن احتفالات هذا العام ٢٠١٢ خصوصاً فى مرحلته الأخيرة تُسلِّط الضوء على أكبر مقدار ممكن من التعريف والدعاية والتواصل بمعجزة الكتاب والأدب الأرمنيين إلى جانب الأمسيات الأدبية والمعارض المختصة للكتب الأثرية الأرمنية المحفوظة فى المكتبات والمتاحف الأجنبية . كما يعرض الكثير من الكتب المستعارة من النسخ النادرة .

إن احتفالات يريڤان كعاصمة للكتاب ٢٠١٢ والذكرى ٥٠٠ عام للطباعة الأرمنية ليست فقط مشاركة مشرِّفة من الشعب الأرمنى حول العالم فى ذكرى تأسيس مجالات الطباعة والفكر والأدب وصيانتها وتطويرها بل لتذكير الأجيال الفتية بالخطوات التى مهدها لهم الآباء العباقرة منذ تاريخ اختراع الحرف مروراً باختراع الطباعة أيام جوتنبرج وحتى اليوم . . . يوم الإنترنت .

يعقوب أرتين باشا
وتاريخ المماليك في مصر

إعداد : آمال خطاب

رغم الانتقادات التى تُوجّه إلى سلاطين المماليك فى مصر لاسيما الحقبة الأخيرة من دولتهم ، فإن هذا العصر يُعد من العصور الكلاسيكية فى التاريخ المصرى العام ؛ إذ بفضلهم تمت تصفية الوجود الصليبى «الفرنجة» فى الشام وصدّوا جحافل المغول . كما شهد هذا العصر قمة الإبداع المعمارى والفكرى ناهيك عن بدء العلاقات الدبلوماسية مع العالم الخارجى . بيد أن الاحتلال العثمانى لمصر (١٥١٧) قد أدخل مصر وبقية البلاد العربية فى مرحلة من أحلك مراحل تاريخها .

فى خريف ١٨٩٥ ، وجّه الكاتب الإنجليزى وليم موير سلسلة أسئلة عن تاريخ دولة المماليك فى مصر إلى يعقوب أرتين باشا (١٨٤٢ - ١٩١٩) الذى كان يشغل آنذاك وظيفة وكيل نظارة المعارف العمومية فى مصر . ويُعد أرتين باشا من أبرز المثقفين فى مصر آنذاك ، وله إسهامات فكرية متميزة فى مجالات التعليم والتاريخ والمعرفة العامة والأدب وشتى نواحى الثقافة . زد أيضاً ، إسهاماته الفكرية فى ميدان التعليم والملكية العقارية والإنجليز فى السودان وغيرها . والثابت أن أرتين باشا كان من أوائل المنادين بتأسيس جامعة مصرية فى أواخر القرن التاسع عشر . ولذا ، فلاغرو أن يكون ضمن أعضاء أول مجلس إدارة للجامعة الأهلية (١٩٠٨) . على أية حال ، أجاب أرتين باشا على موير فى ١١ سبتمبر ١٨٩٥ ، وفيما يلى نص الإجابات ، حيث ترجمها إلى العربية كل من محمود عابدين وسليم حسن .

باحثة ماجستير
جامعة دمنهور

١ - «دخل المماليك فى طاعة الباب العالى عام ١٥١٧ م . وإنى لأظن أنهم ظلوا إلى ذلك العهد أمة ذات شخصية ممتازة لا اختلاط لها بالسكان . فماذا ترون ؟» .

نعم ، كان الأمراء كذلك ، ويجب على المتتبع لتاريخهم ألا ينسى أنهم لم يدعوا مطلقاً أنهم يكوِّنون بالزواج والمصاهرة أمة مختلطة منهم ومن أهل البلاد ، وكذلك لم يريدوا أن يُنشئوا أسراً ظاهرة متميزة أو طبقة أرستقراطية بزواجهم من جوارى من بنات جنسهم . ومن أظهر خواصهم الخلقية والاجتماعية أن الطفل منهم كان لا ينبغى له أن يخلف والده ، بل كان المملوك يخلف سيده المملوك فيصب ولىَّ أسرته ووصِّيها . ولدينا أمثلة كثيرة على أنه كان يضم أزواج سيده إلى حريمه وإذا لم يقتل الأطفال عاملهم معاملة تُؤدى بحياتهم . وفى آخر عهد دولتهم كانوا أمة جندية ديمقراطية .

٢ - « وبعد ذلك أظلوا بمعزل عن الناس كما كانوا من قبل ، أم أنهم اختلطوا بالناس من عرب وغيرهم من سكان البلاد ، أو بالذين جاءوا من سورية أو آسيا الصغرى وغيرها ؟ » .

كلا ! إنهم ظلوا فى عزلة لأنهم ، لما كانوا يحرصون جد الحرص على بقائهم أمة جندية حاكمة للبلاد ، تمسكوا بمبدأهم وهو عدم الاتحاد والاختلاط ، وكان أهم ما تصبو إليه نفوسهم فى الحياة الحروب يشنونها ولو على أنفسهم ، أو على أهل البلاد ليكسروا من شوكتهم ويُخضِّعوهم لطاعتهم . ولما كانت هذه هى حياتهم كان تكوينهم لأسرات قريباً من المستحيل . وقليل من هؤلاء الفرسان من مات حتف أنفه وهو على فراشه فى سن التسعين أو نحوها ، وكثير منهم مات ميتات شنيعة وهو لم يُجاوزوا من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة . وعند موتهم كانت تؤول بيوتهم وأمتعتهم وأموالهم وجواريهم ومماليكهم وأطفالهم بل كل شىء يملكونه ، إلى سادتهم ، أو إلى قاتليهم ، أو إلى الحكومة التى كانت فى الغالب أقوى هيئة . وفى الحالة التى كانت فيها الحكومة أقوى هيئة كان كل ما يخص الميت ، بما فى ذلك أبناؤه ، يُباع لمصلحة «بيت المال» . وفيماعدا ذلك ، كان أقوى زعيم فى المماليك هو الذى يستولى على كل ذلك . أما المماليك الذين عاشوا فى عزلة عيشة مدنية وتزوجوا وصار لهم ذرية فقد اندمجوا ، بعد جيل أو جيلين ، فى المصريين ، وكان أولادهم يُسمّون «المولدِّين» وكانوا فى عرفهم لا يليقون بأى حال للجندية أو الإدارة . وإنكَ لتجد فى كتاب «تاريخ الجبرتى» أمثلة عدة لهذا التوليد . ولعل أشهر هؤلاء «عبد الرحمن الكخيا» مولى «على بك» خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

والمثال الثانى أسرة رجل يعرفه أهل هذا الجيل ، وأعنى به «محمود باشا سامى البارودى» ، وهو الآن فى جزيرة سرنديب «سيلان» مع عرابى باشا ، وهو يقول إنه من سلالة السلطان الغورى . ولكن المعروف عن نسبه أنه حفيد مملوك لعلى بك عُهد إليه بالترسانة التى أنشأها فى «بولاق» . وقد بقى هذا المملوك فى منصبه حتى بعد موت «على بك» لخبرته ودرايته بصناعة البارود وصهر البرونز اللازم لعمل المدافع وغير ذلك ، ومن هنا سُمِّى «البارودى» . وقد تمسك ابنه بهذه الجنسية ، وتزوج جارية چركسية رُزق منها ابنة تزوجت مملوكاً چركسياً وُلد له منها «محمود سامى باشا» (رب السيف والقلم) . وقد تزوّج من حفيدة ابنة أخت «محمد على باشا الكبير» ، ولايزال له منها ذرية باقية . إنا قد أوردنا هذا المثال لأنه يُرينا أسرة يرجع أصلها إلى مملوك عمرت فى البلاد نحو مائة وخمسين عاماً ، وبقيت بمعزل عن بقية السكان فى المصاهرة ، ولم يُخالف أحد من هذه الأسرة عادة الزواج بجارية أسيوية سوى محمود باشا سامى ؛ إذ تزوج من غير جارية ، كما ذكرنا ، وإن لم تكن مصرية . والأمثلة التى تُشبه هذا المثال قليل علمها عندى . أما أمثلة الأسرات التى يقل تاريخها عن مائة عام ؛ أى بعد فتح محمد على الكبير للبلاد فكثيرة . وعلى الجملة نجد أن كل الأجانب الذين هم من دم أجنبى صرف يُفضِّلون أن يكونوا ممتازين عن المصريين السمر اللون . على أن هناك كثيراً من الأمثلة على اختلاط دم المصريين بهؤلاء الأجانب ، ولكنه اختلاط على غير قاعدة ، بل ينشأ فى الغالب من الصعوبة فى العثور على زوج من جنس المتزوج أو المتزوجة أو فى درجتهما الاجتماعية ، أو ينشأ عن الرغبة فى الاختلاط بحكم طول المعاشرة أو تنازع البقاء . وعلاوة على ما تقدم قد غيّر الخديو «إسماعيل باشا» منذ ثلاثين عاماً اللغة الرسمية التركية باللغة العربية ، فكان لذلك تأثير عظيم فى ميول الأتراك والچركس ، أو على العموم ميول المسلمين الأجانب ، فجعلهم يتقربون من المصريين ، فخففوا من غلوائهم معاملة النظير لا معاملة السيد للعبد ، بل ودوا لو قبلهم المصريون كمصريين . وقد بولغ فى إظهار هذه العاطفة

إبان الثورة العرابية عام ١٨٨٢ م ؛ إذ رأيتُ بعينىّ رأسى أناساً ليس فى دمهم قطرة عربية يدّعون أنهم من سلالة النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) . وهذا الروح آخذ فى الانتشار ، وفى يقينى أنه لم يمض ثلاثون عاماً حتى لا يكون فى البلاد تركى قُح أو چركسى صميم ، فإن جميع الأسر الموجودة الآن ستصير مندمجة فى المصريين ، بل إن الدم المصرى ، من غير شك ، سيتغلب على غيره كما تغلّب فى كثير من الظروف من قبل . وإنا لنجد أن الإغريق والسوريين والأرمن والمسيحيين الأجانب الذين يتزوجون من أقباط يتلاشون فى الجنس المصرى بعد جيل أو جيلين (زيجة أو اثنتين متتاليتين) .

يظن بعض الناس أن الأجانب فى مصر لا يُمكن أن يكون لهم ذرية أو أسرة خاصة بهم محتفظة بجنسيتهم بعد مرور الجيل الثالث على أصل هذه الأسرة ، ولكن هذا خطأ لأن لدينا أمثلة تاريخية تدل على أن البطالسة الذين جاءوا من مقدونيا وأقاموا بها بهذه الديار ، ظلوا أقوياء عدة قرون رغم تزوجهم من أخواتهم . وبياناً للصعوبة التى نشأت فى تكوين أسرات فى مصر من وقت أن آلت مقاليد الحكومة إلى المماليك الترك يجب أن ننظر أولاً لنظامهم الحربى ، ثم إلى حياتهم الكثيرة الهياج والاضطراب ، وما كانوا يلقونه من أشنع الميتات ، وإلى زواجهم - إذا اتفق أن طال عمرهم - من زوجات مصريات كن يصبغن أولادهن من هؤلاء بالصبغة المصرية . وإنى على يقين من أن جو هذه البلاد له تأثير فى الأجانب أحسن من تأثير أجواء البلاد الجنوبية كلها فيهم .

وقد قيل لى أن أسرة «قايتباى» وبعضاً من سلالة العباسيين لايزالون باقين فى هذه البلاد ، ولكن مجرد النظر إلى هؤلاء يرى أنهم مصريون ، للون بشرتهم وملامح وجوههم . ويجب على كل إنسان أن يصغى بحذر إلى أى شخص يدّعى أنه من ذرية السلاطين السابقين أو من نسل أى مملوك من مشاهير المماليك بحجة أن له نصيباً فى أوقاف حبسها هذا السلطان أو ذلك المملوك ، إذ أن هذه الحجة لا تقوم دليلاً كافياً على نسبته إلى ذلك الواقف فإن عيون الوقف كانت تُحبس على العموم على الأبناء والوالدين والمماليك والعبيد من ذكور وإناث وكذلك على الخادمين والخادمات وذرياتهم بل على ذرية الذرية دواليك . ومن هذا ترى الصعوبة الكبرى فى تتبع نسب أى إنسان من أهل هذا العصر ولا فى الحكم بصحته بمثل هذه المعلومات القليلة ، وخاصة إذا راعيت أن تاريخ مصر قد توالى عليه ، فى غضون القرون الستة التى خلت ، عصور كلها ثورات وانقلابات .

٣ - «فى عام ١٨١١ ذبح فى القلعة بأمر «محمد على الكبير» عدد كبير من المماليك . فهل هرب من المماليك عدد كبير غير من قُتلوا ؟ ومن ذلك العهد هل بقى أى أثر يدل على أن المماليك ظلوا ممتازين عن غيرهم ؟» .

لم يُقتل فى مذبحة القلعة غير زعماء المماليك وأتباعهم . ولكنى لا أستطيع تحديد عدد القتلى منهم ، وكل ما لدىّ من المعلومات التى حصلتُ عليها أنهم لم يُجاوزوا المائتين ، وهؤلاء الرؤساء جميعهم چراكسة . أما أتباعهم الذين كانوا يتولون خدمتهم فمن المصريين . أما من سكن الأقاليم من المماليك فلم يحلَّ بهم ما حل بإخوانهم ، وكثير من المماليك الذين كانوا فى القاهرة كانوا أعواناً لمحمد على ، ولذا نجوا من العاصفة . ويُحتمل أن بضعة ألوف منهم هربوا من البلاد فخرج بعضهم إلى سورية وبعضهم إلى الوجه القبلى ، وذهبوا إلى دنقلة ، ومنها إلى شندى حيث هلك بعضهم . وخدم آخرون فى جيوش محمد على التى ذهبت إلى السودان عام ١٨٢٤ . وقد أخذ محمد على ألفين من المماليك الذين لم تبلغ سنهم الثامنة عشرة ، وكانوا تابعين للمماليك الذين هلكوا ، بموجب قانون كان نافذ المفعول حينذاك ، ومؤداه : إن كل ما للعدو يُصبح ملكاً

لقاهره . وهذا القانون له نظير فى التوراة (داود وابنه) . وهؤلاء الأحداث انتظموا فى أول الأمر فى حرس محمد على الخاص ، والتحقوا بمدرسة القلعة ثم صاروا ضباطاً فى الجيش النظامى الذى أنشأه محمد على عام ١٨١٥ فى قلعة القاهرة ، ثم نُقل بعد ذلك فى عام ١٨١٨ إلى أسوان عندما ثار الجيش الألبانى على الجيش النظامى . وكان هؤلاء الأحداث أساس الفرق الأربع التى تم تكوينها إلى عام ١٨٢٤ . ويُقال إن عدد جنود المماليك بلغ عشرين ألفاً فى أول حكم محمد على ، وكان عددهم أربعين ألفاً قبل حملة «بونابرت» على القاهرة وقبل أن يُنفوا أو يُقتلوا . ولا يغيب عن الذهن أنه قد قلَّ ورود المماليك من الشمال لكثرة الحروب والثورات فى مصر بين عامى ١٧٩٨ و١٨١١ . وكذلك يجب ألا ننسى أن النخاسين لم يجدوا فائدة لهم من توريد مماليك جدد لإفلاس زعماء المماليك ، ولهذا لم يكن فى مقدور هؤلاء الزعماء لعدة سنين أن يُكوِّنوا جنداً من المماليك قبل أن يقضى محمد على رابطتهم فى عام ١٨١١ قضاءً مبرماً . ومن عام ١٨٢٤ إلى هذا الوقت كان قواد الجيش من الأجانب ، وكان نصفهم على الأقل من المماليك الچراكسة التابعين لأسرة الوالى . وإنكَ لتجد آخر ذكر لهم سنة ١٨٨١ عندما أراد «عرابى» أن يطردهم جملة من الجيش . ومعظم هؤلاء الچراكسة اشتراهم الخديو إسماعيل باشا بعد قبض الروس على «شامل» عظيم الچراكسة وآخر زعيم لهم ، إذ أنه بعد موت هذا الزعيم هاجر عدد كبير من الچراكسة إلى تركيا ومصر وباعوا أبناءهم فاشترى منهم «إسماعيل باشا» عدداً كبيراً ، كما ذكرنا ، وأرسلهم إلى مدارسه ، ورباهم تربية حربية حسنة حتى صاروا ضباطاً مدربين .

ولا تجد من عهد أن أُبطلت تجارة الرقيق مماليك يُباعون فى مصر . ولايزال عدد كبير منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز فى الأعمال العامة . وهم على العموم من سلالة آرية من الإغريق والچركس والأرمن وأهل چورچيا وغيرهم . وهم ينعمون بالحرية التى يتمتع بها الأحرار من الناس .

إنكَ لا تجد فى أية جهة من جهات مصر أن الدم الأجنبى هو الغالب فى السكان ، وأول قادم إلى مصر عندما ينزل إلى الدلتا يُلاحظ لأول وهلة أن لون البشرة فى أهل السواحل أنقى منه فى الداخل ، ثم يأخذ يضرب السمرة فى الجنوب حتى القاهرة التى فيها خليط كبير من مختلف الألوان . والذى أراه أن الدم المصرى قد امتزج بالدم السامى أكثر من امتزاجه بغيره قديماً وحديثاً . وإلى الجنوب من القاهرة يزيد لون البشرة سمرة حتى إذا بلغنا النوبة وجدناه أشبه شئ بلون الزنوج . وشمالى القاهرة يصفو اللون لامتزاجه بالدم السورى والإغريقى والتركى . وليس الآن فى مصر جنس مصرى خالص فى مصريته ، ولذلك كان عسيراً على أى إنسان أن يُحدد ماهية اللون المصرى . وعلى قدر مبلغ علمى أقول إن هناك مكانين جديرين بالاعتبار هما : (أولاً) شواطئ بحيرة المنزلة حيث يجد الإنسان جنس الهكسوس إذ ـ كما يتبين من الآثار ـ نجد لهم خدوداً ناتئة وعيوناً صغيرة وجباهاً عريضة وأنوفاً كبيرة ولحية غير كثة ، و(ثانياً) الجزء الشمالى الشرقى من مديرية الدقهلية فيما يلى الصحراء السورية حيث يجد الإنسان الجنس السامى الصميم والقريب وخاصة فى النساء . وفيما يختص بالجنس المصرى ـ كما هو ظاهر فى الآثار ـ فإن الإنسان يجد له أثراً من جنوبى بنى سويف إلى الشلالات .

وإنى لأعتقد إنى أديتُ ما يجب علىّ نحو أسئلتكَ ، وإنى أخشى أن أكون قد أطلت ، ولكنى أرجو منكَ المعذرة ؛ إذ أنكَ تعلم الصعوبة التى يلقاها من يتبادل مثل هذه المعلومات بإيجاز .

صحافـــــــة

الطائفة الأرمنية تكرم الصحافة المصرية

إعـداد : عطا درغـام

مما لا شك فيه أن مصر قد اتسمت على مدار تاريخها باستيعاب العناصر غير المصرية فى نسيجها العام مما أضفى عليها مرونة وحيوية وخصوبة ونماء . وفى المقابل ، شعر ـ وعن حق ـ كل من قطن الديار المصرية وعاشر أهلها بـ «حميمية دافئة» قلما نجدها فى أية بقعة من العالم . وفى هذا الخصوص ، تميز الأرمن المصريون بتقديرهم العالى إلى مصر وشعبها . ومن هذا القبيل تقديرهم المتميز لرجالات الفكر والثقافة باعتبارهم مشاعل التنوير . وثمة تقليد رائع سلكته النخبة الفكرية الأرمنية المصرية مفادها تكريم الفكر المصرى مجسداً فى رموزه وشوامخه على نحو ما جرى فى «النادى الفنى الأرمنى» . وقد تأسس هذا النادى فى ٦ مايو ١٩٢٠ بمبادرة من جايدزاك بوزاچيان بهدف تجميع شباب الطائفة الأرمنية حول قوة منظمة لإيقاظ ورفع تذوقهم الفنى . وفى مطلع يناير ١٩٣٧ ، وعلى هامش الاحتفالات المصرية بتقلد فاروق الأول عرش مصر ، كرّمت الطائفة الأرمنية فى مصر الصحافة المصرية ورموزها على نحو رائع كما يتضح مما سننشره فى هذا العدد من «أريك» . هذا ، وقد تم تجميع هذا المقال من الأخبار الواردة فى الصحافة المعاصرة من قبيل «المقطم» الأحد ١٠ يناير ١٩٣٧ ، «الأهرام» الأحد ١٠ يناير ١٩٣٧ ، «كوكب الشرق» الإثنين ١١ يناير ١٩٣٧ .

دعا الاتحاد الفنى الأرمنى نخبة من الصحفيين والأدباء وطائفة من الكبراء والعظماء إلى حفلة تكريم يُقيمها للصحافة المصرية .

فكان فى مقدمة الحاضرين صاحب المعالى وزير المعارف العمومية وتوفيق رفعت باشا رئيس المجمع الملكى وأحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية ومختار حجازى باشا محافظ القاهرة والأستاذ أحمد راسم وكيل المحافظة وغيرهم من الكبراء .

وبدأت الحفلة بعزف النشيد الملكى فى الساعة الخامسة من مساء أمس .

ثم ألقى الأستاذ صاروخان الرسام المعروف كلمة الافتتاح فذكر العلاقات الوثيقة التى تربط المصريين بالأرمن .

وأشاد الأستاذ بجهاد مصر فى سبيل حريتها وأفاض فى ذلك كثيراً فكان لكلمته أحسن الوقع لدى السامعين .

وبعد أن تناول المدعوون الشاى والحلوى وقف سيادة نسيميان مطران الأرمن الكاثوليك بمصر وألقى كلمة بالعربية كان لها أجمل الأثر عند الحضور ، ثم أُلقيت أبيات للمرحوم شوقى بك عن الصحافة ، وألقى

بعد ذلك مسيو حكيميان كلمة باللغة العربية أيضاً عرض فيها للعلاقات التاريخية بين المصريين والأرمن من عهد رمسيس الثانى .

ووقف بعد ذلك معالى وزير المعارف فألقى كلمة عن سروره لتكريم الصحافة المصرية ، ثم اعتذر عن البقاء لآخر الحفلة لاضطراره إلى الاشتراك فى جلسة مجلس الوزراء وعُزفت بعض قطع غنائية .

ثم وقف الأستاذ رئيس تحرير جريدة «أريف» الأرمنية وألقى كلمة باللغة الفرنسية أشار فيها إلى شعور الأرمن نحو مصر وذكر بعض الشخصيات التاريخية .

واختُتمت الحفلة بالنشيد الملكى بعد أن ألقى حضرة الأستاذ الدكتور أحمد فريد رفاعى مدير إدارة الصحافة والنشر بإسم الصحافة المصرية الكلمة التالية :

كلمة مدير إدارة الصحافة :

سيداتى ، سادتى :

شرف كبير طوق به جيدى وتوج به هامتى حضرات أعضاء هذه الجمعية الموقرة ، حينما طلبوا إلىّ أن أقول كلمة فى هذا الحفل المنزع بمعانى عرفان الجميل والبر والإحسان .

وإنى ، وإن لم يكن مركزى الرسمى كمدير لإدارة الصحافة والنشر والثقافة ، يسمح لى بالكلام ، ولكنى كصحافى قديم ، ولاأزال اعتبر نفسى زميلاً لإخواننا الصحفيين ، مصريين وأجانب ، أشكر لحضرات إخواننا النزلاء الأرمن هذه الحفاوة الفائقة وهذا التكريم الجميل .

وليس من شك أننا نُقدر هذه الحفاوة حق قدرها ونُقدر ما أبداه الخطباء الأفاضل من العواطف النبيلة نحو مصرنا ، بل مصركم المحبوبة .

سيداتى ، سادتى :

قابلنى المسيو صاروخان عند حضورى ، وذكر لى ما بذله منظمو هذا الحفل من جهود ، فأكبرتُ فى إخواننا الأرمن التضامن والاتحاد والنشاط والعبقرية . وليس من شك أن شعباً هذا شأنه لن يموت . وإنى لأذكر ما ورد على لسان أحد الخطباء عما قام به كثير منهم فى وظائف الحكومة المصرية وما أسدوه من جليل خدمات لمصر والمصريين ، وإنى لأقدر فيهم العبقرية والنبوغ .

سيداتى ، سادتى :

إن شعب مصر ، شعب وادع كريم ، وإنه ليمد يده لإخواننا النزلاء الذين يتعاونون معه بنبل وإخلاص ، وإننا كرماء لضيوفنا ، ولكنا أحرار فى بلادنا .

سيداتى ، سادتى :

إنى لأشكر لحضرات الخطباء ، ما أبدوه من نبيل العواطف ، وشريف الشعور نحو زعيمنا الراحل الخالد سعد زغلول ، زعيم مصر ، بل زعيم الشرق ، وما أشادوا به من ذكر زعيمنا الأكبر ورئيسنا الجليل حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، الذى أبلى بلاءً حسناً فى قضية البلاد فأتم استقلالها واسترد دستورها ، والذى يعمل دواماً على الوحدة والإخاء .

وإنى لأرجو ـ ومصر تستقبل عهداً جديداً سعيداً فى ظل مولانا حضرة صاحب الجلالة المفدى فاروق الأول حفظه الله ـ أن تثقوا ، وقد مددتم أيديكم ، أن المصرى وشيمته عرفان الجميل ، يُقابل بالحب حباً مثله ، وبالولاء ولاء شبيهاً ، وبالإخاء إخاءً نظيراً ، وبالتعاون تعاوناً أوسع مدى وأوفر ظلاً ، وأملى قدراً ، وأنبل غاية ، وأشمل رعاية .

إنكم ، أيها السادة ، أظهرتم بتصريحاتكم وتقديراتكم لزعيمنا ، بل زعيمكم ، ومصرنا ، بل مصركم ، إنكم خليقون بأن تكونوا نعم الزملاء والأقرباء ، ونعم الإخوان والشجراء فعلى الرحب والسعة بكم دواماً ، وعلى الرحب والسعة بتلك الروح السامية ، وتلك العواطف النبيلة ، وهذا البر الصحيح والإخاء الوافر .

وفقنا اللّه جميعاً إلى خير وفلاح .

معجم المرأة الأولى فى مصر

الجزء الثالث

إعداد : شيماء الشواربى

منذ العصر المصرى القديم ، حظيت المرأة المصرية بمكانة محورية فى الحياة الأسرية والمجتمعية . وبمرور الزمن ، ترسّخت هذه المكانة بموجب الشرائع السماوية . وفى العصور الحديثة ، أسهمت المرأة بامتياز فى المنظومة المصرية على كافة المستويات . ونظراً لهذا الإسهام ، تنفرد «أريك» بنشر سيرة ذاتية مقتضبة لأول مرأة فى جميع التخصصات والمجالات والميادين المختلفة ، وسوف نقوم بترتيب أسمائهن أبجدياً . وتجدر الإشارة إلى أننا استقينا معلومات هذا المعجم من مواقع إلكترونية وكتب متخصصة فى تاريخ المرأة وموسوعات على رأسها : ١٠٠٠ شخصية نسائية مصرية للأستاذ أحمد رجائى ، وأعلام مصر فى القرن العشرين من إعداد وكالة أنباء الشرق الأوسط وغيرهما .

١ ـ زهرة رجب

مواليد ١٦ سبتمبر ١٩١٦ بالإسكندرية . من ألمع نائبات مجلس الشعب فى بداية عضوية المرأة وكانت تكتسح الفوز فى كل الانتخابات التى خاضتها . فازت على ١٤ رجلاً فى انتخابات مجلس الأمة (١٩٦٤) وانتُخبت فئات عن دائرة قسم الجيزة (١٩٧٢) . من أوائل السيدات المؤسسات فى العمل التعاونى . مؤسسة جمعية ربات البيوت بالجيزة ورئيس مجلس إدارتها (١٩٥٥) . وجمعية بلدى . وضعت نواة لدور الحضانة بالريف . وكيلة جميعة المرشدات . أنشأت شعبة للهلال الأحمر بالجيزة . عضو الاتحاد العام للجمعيات التعاونية الاستهلاكية . عضو الجمعية التأسيسية للوحدة بين مصر وليبيا (١٩٧٣) . عضو مجلس محلى الجيزة . اختارها رئيس مجلس الشعب لمعاونته فى إجراءات الجلسات طوال دورة المجلس (ديسمبر ١٩٧١) . كانت ضمن ثلاث فتيات اجتزن أجازة الطيران الخاص لأول مرة (لطيفة النادى ـ نفيسة الفخرانى ـ زهرة رجب) . كرّمها الاتحاد التعاونى العربى باعتبارها رائدة . وجائزة التفوق التعاونى بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على إنشاء ربات البيوت (١٩٨٤) . شقيقة السفير حسن رجب خبير البرديات . توفيت ١٣ مايو ١٩٨٥ .

٢ ـ د. زهيرة حافظ عابدين

مواليد ٥ يونية ١٩١٧ . الأولى على البكالوريوس قسم علمى عام ١٩٣٦ . التحقت بطب قصر العينى وتم تعيينها أول عضو هيئة تدريس من النساء بكلية الطب . حصلت على الماجستير والدكتوراة فى طب الأطفال . حققت الأستاذية ورأست قسم طب

الأطفال. حصلت على الدكتوراة الفخرية من جامعة أدنبره بإنجلترا (١٩٨٠) . أنشأت جمعية أصدقاء مرضى روماتزم القلب ١٩٥٧ وأقامت مستشفى لهم بالهرم . أول سيدة مصرية تحصل على عضوية الجمعية الطبية الملكية البريطانية ١٩٨٤ . فازت بجائزة فورجال العالمية ١٩٧٧ . تم اختيارها أم الأطباء المصريين (١٩٨٩) . وسام رواد الطب من نقابة الأطباء . ترأست جمعية بإسمها لعلاج مرض روماتيزم القلب .

٣ ـ د. زينب أبو العلا محمد حافظ

مواليد ١٠ يولية ١٩١٢. كانت ضمن أول ثلاث طالبات تلتحقن بكلية الصيدلة هى ورومة غبريال (عملت صيدلانية بجامعة الإسكندرية) وكوزيت حداد (هاجرت) . تخرجت عام ١٩٣٥ وعملت فى وزارة الصحة وقُيدت عضواً بنقابة الصيادلة برقم ٥٨٢ عام ١٩٤٢ . سافرت مع زوجها د. زكى إبراهيم الأستاذ بعلوم عين شمس إلى إنجلترا حيث عمل وكيلاً لمكتب البعثات بلندن فدرست وحصلت على الدكتوراة فى كيمياء الصيدلة (١٩٤٩) وعادت لتُشارك فى تأسيس كلية الصيدلة بالإسكندرية ثم أول أستاذة ورئيسة لقسم (كيمياء الصيدلة) بجامعة القاهرة . استقالت وسافرت مع الزوج ليعملا فى جامعات الموصل بالعراق وجامعة الأردن وجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية ـ عادت لتستقر بالقاهرة وتُقيم مع ابنها د. شريف بالقاهرة . شقيقتها إحسان أبو العلا كانت دفعة كريمة السعيد ورُشحت معها لبعثة دراسية بلندن ولكن والدتها رفضت . والدها مكتشف أم كلثوم وتُؤكد أن المسلسل التلفزيونى عن أم كلثوم أظهره على غير حقيقته . فقد كان شيخاً أزهرياً مثقفاً بالغ الشياكة والأناقة . تعتز بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى الذى منحه لها الرئيس الراحل أنور السادات .

٤ ـ زينب الكفراوى

فتاة فى عمر الزهور . قامت بعمل بطولى خلال العدوان الثلاثى على بورسعيد عام ١٩٥٦ . أُسند لها رجال المقاومة الشعبية عملية نقل الأسلحة والذخائر من مخبأ سرى بعزبة النحاس إلى تجمع لهم بالقرب من شارع رشيد وتم إخفاء الأسلحة فى عربة أطفال وضعت فيها شقيقتها فوقها وأسدلت عليه الستائر واستطاعت اختراق دوريات الإنجليز حتى تمكنت من تسليم السلاح للفدائيين .

٥ ـ زينب (أفندى) خير الدين

تاريخ الميلاد ١٢٧٧ هـ . خريجة المدرسة الطبية ١٢٩٢ هـ . عُينت حكيمة وتنقلت بين عدة محافظات وقضت فى الوظيفة ٢٤ عاماً حتى تم إحالتها للمعاش فى أكتوبر ١٩٠٠ ميلادية . حيث قرر القومسيون الطبى تقدمها فى السن وضعف نظرها . وكانت آخر وظيفة لها حكيمة إسبتالية أسيوط . مُنحت لقب أفندى «ملف خدمتها بدار المحفوظات بالقلعة» .

٦ ـ زينب (أفندى) رضوان

مواليد ٨ رجب ١٢٨٦ هـ . حصلت على شهادة طبية من نظارة المعارف أهلتها للعمل مدرسة بمدرسة الولادة فى ١١ مارس ١٨٨٦ ثم خوجة (أستاذة) بها . ثم معلمة (معيدة) بمدرسة الطب حتى تمت إحالتها للمعاش نهاية ديسمبر ١٩٠٠ عندما قرر القومسيون الطبى بنظارة الصحة تجاوزها للخدمة فتمت تسوية حالتها . وكلت القائمقام (عقيد) محمد بك توفيق الحكيم بالحربية لإستلام معاشها وقدره جنيهان وخمسمائة مليم ومصدقه على توقيعها (بالفرنسية والعربية) بقلم كتاب محلى عابدين . مُنحت لقب أفندى . «ملف خدمتها» .

٧ ـ د. زينب عصمت راشد

مواليد الإسكندرية (١٩١٩) . ليسانس آداب قسم تاريخ جامعة إبراهيم باشا (عين شمس) . دكتوراة فى التاريخ من جامعة ليفربول عن عصر نابليون (١٩٤٩) . تدرجت فى سلك التدريس بالكلية التى تخرجت فيها

لدرجة الأستاذية ثم أُختيرت لتكون أول عميدة لكلية البنات الإسلامية جامعة الأزهر فى عام ١٩٦٢ . ثم رئيساً لقسم التاريخ . عُينت رئيساً لمركز الدراسات الجامعية للبنات بجامعة الرياض فى عام ١٩٧٧ . أُختيرت عضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٠ والمجلس القومى للفنون والثقافة عام ١٩٨٣ . عُرفت بقوة الشخصية . ادخلت النشاط الفنى والثقافى والرياضى والموسيقى ضمن نشاط الطالبات ، فحصدت طالبات الأزهر البطولات فى أسابيع شباب الجامعات . حصلت على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨١ . استمرت فى التدريس بجامعة عين شمس حتى تُوفيت فى عام ١٩٩٨ .

٨ـ زينب كامل حسن

أنهت دراستها الثانوية فى مدرسة معلمات السنية ، ولتفوقها تم إلحاقها ببعثة الحكومة المصرية إلى لندن عام ١٩٢١ ثم إلتحقت بجامعة لندن لتتخصص فى دراسة الكيمياء ولتُصبح أول مصرية تحصل على بكالوريوس فى الكيمياء ودبلوم البكترلوچيا من لندن عام ١٩٢٩ . التحقت بكلية العلوم لتعمل معيدة بقسم الكيمياء . فى نفس العام تم التحاق أول دفعة طالبات بكلية الحقوق والآداب والطب .

تم اختيارها عام ١٩٥٠ لتكون المثقِّفة العامة للطالبات بالجامعة بالإضافة لإشرافها على بيت الطالبات مما مكنها من حل الكثير من مشاكلهن العلمية والاجتماعية . وعُينت عام ١٩٦١ خبيرة لشئون المرأة والطفل بجامعة الدول العربية ، ثم ملحقة لمكتب الجامعة العربية بلندن فكان جهدها فى إظهار تطور المرأة العربية من خلال الندوات والمحاضرات التى أعدتها هناك . ظلت تعمل حتى تُوفيت فى ٢٣ يناير ١٩٩٣ . وبعدها يكمل المسيرة ابنها د. طارق على حسن أستاذ التغذية بكلية الطب ورئيس دار الأوبرا السابق على إحياء ذكراها من خلال مؤسساتها الاجتماعية التى تحمل اسمها فى نفس الشارع الذى أطلقوا عليه اسمها بحى المهندسين بالدقى .

٩ـ زينب مصطفى الغزالى

بكالوريوس تجارة قسم إدارة أعمال ودراسات عليا . بدأت العمل الوظيفى التقليدى موظفة حكومية . لكنها استقالت لتتفرغ لإدارة أعمالها ولتصبح نائب رئيس مجلس إدارة «تاكى» . من أوائل سيدات الأعمال المشاركات فى تأسيس جمعية تضم سيدات الأعمال المصريات وأصبحت أمينة الصندوق .

١٠ـ د. سامية التمتامى

مواليد ١٢ مايو ١٩٣٥ دمنهور . . بكالوريوس الطب والجراحة جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ . بدأت طالبة منحة بالمركز القومى للبحوث وابتُعثت لدراسة الوراثة البشرية فى أمريكا . حصلت على الدكتوراة عن تشوهات اليد على أسس وراثية تُرجح وجود تشوهات فى الكلى أو القلب أو العيون من أمريكا (١٩٦٦) . وتم طبع الرسالة كمرجع عالمى مهم. أُختيرت الباحثة الأولى فى مشروع لأكاديمية البحث العلمى عن تشوهات الأطفال حديثى الولادة . أُعتبر بحثها الذى قدّمته فى مؤتمر دولى عن أحد أنواع التخلف العقلى كشفاً علمياً جديداً .

١١ـ د. سامية الصياد

عميدة كلية الصيدلة جامعة أسيوط . مواليد ٨ يولية ١٩٤٥ قليوب. بكالوريوس علوم صيدلية عام ١٩٦٦ . ماجستير عقاقير عام ١٩٧٠ . دكتوراة فلسفة العلوم الصيدلية عام ١٩٧٤ . كانت ضمن أول دفعة طالبات تلتحقن بالكلية عام ١٩٦٠ . وأول سيدة تنضم لهيئة التدريس ، معيدة بها ١٩٦٦ . أستاذة عام ١٩٨٤ وكيل الكلية للدراسات العليا (١٩٨٧ ـ ١٩٨٩) رئيسة قسم العقاقير فى عام ١٩٩٠ . أُعيرت لكلية الصيدلة بجامعة الملك عبد العزيز (١٩٩٢ ـ ١٩٩٥) . كرّمتها

النقابة العامة للأطباء فى عام ١٩٩٩ .

١٢ ـ د. سامية صبرى

بكالوريوس الطب والجراحة جامعة القاهرة فى عام ١٩٧٢ . ماجستير طب وجراحة العيون فى عام ١٩٧٦ . دكتوراة فى عام ١٩٨٩ . انضمت لسلك التدريس بالكلية وتدرجت لدرجة أستاذة ١٩٩٢ . أُختيرت فى عام ١٩٩٠ مديرة لبنك العيون . عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للمياه البيضاء وأمراض القرنية . شاركت فى أول مؤتمر للقرنية فى براغ . عضو دولى فى الأكاديمية الأمريكية لطب وجراحة العيون .

١٣ ـ كابتن سحر الهوارى

رئيس لجنة الكرة النسائية باتحاد الكرة وعضو المكتب التنفيذى للاتحاد الدولى . أول سيدة فكرت فى تكوين فريق الكرة النسائية . مواليد القاهرة ١٤ يناير ١٩٦٠ ـ بكالوريوس إعلام جامعة أمريكية فى عام ١٩٨١ . ماجستير فى الإعلام عام ١٩٨٣ . الدكتوراة فى الإعلام الرياضى (دور الإعلام فى تطوير كرة القدم) جامعة إنجلترا . عملت فى مشروع الرعاية المتكاملة (١٩٨٠) ولمدة ٣ سنوات . وشاركت فى بحوث أجراها البنك الدولى عن مياه الشرب . تبنت فكرة تكوين فريق للكرة النسائية من خلال تواجدها فى الملاعب مع والدها الحكم الدولى عزت الهوارى . وبدأت جهودها فى أوائل التسعينيات حتى تم تسجيلها فى اتحاد كرة القدم .

١٤ ـ كابتن سحر فاروق يوسف

مواليد ٢ ديسمبر ١٩٦٨ . أول مصرية تُمثل مصر فى أولمبياد لوس أنجلوس عام ١٩٨٤ وعمرها ١٥ عاماً. بطلة مصر فى السباحة التوقيعية . بكالوريوس إعلام جامعة أمريكية فى عام ١٩٩١ . بدأت ممارسة رياضة الباليه المائى منذ طفولتها فى النادى الأهلى (١٩٧٨) . حققت ٢٠٠ ميدالية للنادى فى الغطس والباليه المائى والسباحة. عضو منتخب الباليه المائى . أحرزت أولى بطولاتها فى اليونان فى عام ١٩٧٩ ، وفى أمريكا عام ١٩٨٠ . أصغر لاعبة فى المنتخب المصرى . وأول بطولة عالم فى عام ١٩٨٢ فى أكوادور بأمريكا الجنوبية مستوى سادس . بطولة أسبانيا وسويسرا واليونان وإيطاليا ـ دولية ـ السويد مركز ثان . أحسن راقصة باليه مائى والثانية حركات فى تصفيات الألمبياد عام ١٩٨٣ . بطولة الألمبياد ـ السادسة ـ ١٩٨٤ . الأولى (١٩٨٥ ـ ١٩٨٦) . بطولة العالم الثانية فى أسبانيا فردى وزوجى (١٩٨٦) . بطولة العالم (١٩٨٧) . اعتزلت بعد إحراز بطولات أسبانيا وسويسرا (١٩٨٨) . تفرغت لتدريب فريق الناشئين سن ١٠ و ١٢ عاماً . اعتزلت عام ١٩٩٦ .

١٥ ـ كابتن سحر منصور

بطلة رياضية . مواليد ٢٦ مارس ١٩٥٢ بعابدين . خريجة كلية التربية الرياضية وحصلت على الماجستير وعملت بسلك التدريس بالكلية . بطلة العالم للسباحة الطويلة . وأول فتاة تفوز بسباق (شكوتمى ـ ساجتى) بكندا فى بداية إنشائه . صاحبة ٧ أرقام قياسية للسباحة القصيرة . أرقام لم تُحطمها سبّاحة أخرى طوال عشر سنوات ، اعتلت فيها عرش السباحة العالمية . أول من حصلت على ميدالية فضية فى دورة دولية «أزمير» (١٩٦٠) وكان عمرها ٩ سنوات وكان لوالدها أثر فى ارتفاع مستواها كسبّاحة عالمية . حصلت على أول كأس لأحسن سبّاحة (١٩٦٣) . واحتفظت به ١٠ سنوات . اشتركت فى أول بطولة دولية (١٩٦٧) البحر الأبيض المتوسط المفتوحة للناشئين فى أثينا وجاء ترتيبها الأولى وحصلت على الميدالية الذهبية . أول سبّاحة والوحيدة التى حصلت على الميدالية الذهبية فى سباق ٤٠٠ متر حرة فى مهرجان صوفيا العالمى وكانت الميدالية الوحيدة بين جميع الرياضيين العرب . اشتركت فى سباق ناصر الدولى لنهر النيل كهاوية (١٩٧١) . اتجهت للسباحة الطويلة

(١٩٧٣) ففازت بسباق (شكوتمى ـ ساجتى) ٤٥ كيلو ضد التيار وكانت الأولى التى تفوز بهذا السباق . شاركت فى بطولة العالم (كابولى ـ نابولى) وحطّمت جميع الأرقام (١٩٧٥) . فازت بسباق الـ ٢٤ ساعة بكندا وفازت بالمركز الأول . وسام الاستحقاق والرياضة .

١٦ ـ سعاد دمرداش إبراهيم

من سيدات العمل الاجتماعى والسياسى بأسوان . خريجة كلية التجارة فى عام ١٩٩٦ . عملت بالتدريس وناظرة ثانوى . أول مديرة للمشاتى بمحافظة أسوان . مديرة جمعية الملك عبد العزيز الخيرية للنشاط الاجتماعى بالسعودية لمدة أربع سنوات . بدأت العمل فى ديوان المحافظة وتقلّدت منصب مدير عام فرع الهيئة لمحو الأمية وتعليم الكبار . مسئولة الأمومة والطفولة . شاركت فى مشروع القوافل الطبية . عضو اللجنة النسائية العليا لتنظيم الأسرة . عضو المجلس القومى للمرأة (٢٠٠٠) .

١٧ ـ سعاد رضا

أول عضو منتدب فى تاريخ الصحافة المصرية . تعهدتها السيدة فاطمة اليوسف منذ كانت تلميذة فى المدرسة فعينتها فى دار روزاليوسف تكريماً لوالدها ـ زميلها ـ الفنان الراحل محمود رضا وخصصت لها موظفاً يصحبها للمدرسة كل يوم . واصلت مشوار العمل والدراسة حتى حصلت على شهادتها فى المحاسبة وتدرجت فى العمل مزودة بالقدرة الإدارية التى اكتسبتها من السيدة فاطمة اليوسف . أطلق عليها الكاتب عبد العزيز خميس «ست الدار» . أصبحت مديراً عاماً للمؤسسة وعضو مجلس إدارتها المنتدب، وهو أول منصب فى تاريخ الصحافة تشغله سيدة . ولتُصبح إدارة المؤسسة بين يدىّ سيدة ناجحة . قالوا أنها امتداد لمعجزة فاطمة اليوسف ونجاح لمدرستها .

١٨ ـ سعاد ماهر

مواليد ٢٩ أغسطس ١٩١٧ . ليسانس آداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ودبلوم معهد الآثار ١٩٤٦ . ماجستير فى العصر المملوكى فى عام ١٩٤٩ . دكتوراة فى الآثار الإسلامية عام ١٩٥٢ . تدرجت فى سلك التدريس بكلية الآداب لتُصبح أول عميد ـ سيدة ـ لكلية الآثار جامعة القاهرة . من مؤلفاتها موسوعة محافظات مصر وموسوعة المدينة المنورة . حصلت على وسام الجمهورية من الطبقة الثانية من الرئيس الراحل أنور السادات . كرّمها الرئيس حسنى مبارك بمنحها وسام الجمهورية من الطبقة الأولى . جائزة الدولة من السعودية .

١٩ ـ سعاد مصطفى

مواليد أول يولية ١٩٧٣ . بدأت العمل المصرفى منذ التخرج فى كلية التجارة ، كما تلقت دورات متعددة فى جميع تخصصات الائتمان بالبنك الأهلى المصرى الفرع الرئيسى ، مراقب بمصرف الأمة ببنغازى ليبيا ثم البنك المركزى فالبنك الأهلى المصرى بدرجة مراقب للكمبيوتر مع حق التوقيع الثانى المعتمد . لتُصبح من أوائل السيدات داخل القطاع المصرفى من الحاصلات على حق هذا التوقيع بعد تمصير البنوك وفصل البنك المركزى عن البنك الأهلى (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) . مساعد لمدير بنك تشيز فرع البرجاس مع حق التوقيع الأول منفرداً (١٩٧٦) . مدير للبنك العربى بالقاهرة من (١٩٧٧ ـ ١٩٩٧) . تفرغت للعمل التطوعى والخدمة العامة من خلال عضويتها بالجمعية النسائية لتحسين الصحة (مصر الجديدة) وجمعية قرية الأطفال وجمعية الانتماء والعطاء ورابطة المرأة العربية وجمعية الإسكان الشعبى .

٢٠ ـ الشيخة سكينة حسن

أول قارئة قرآن تُسّجل بصوتها إسطوانات مُسجل عليها تلاوة آيات من «سورة محمد» فى مطلع القرن العشرين .

٢١ ـ د. سلوى غريب

الأولى على بكالوريوس قسم التصميم الصناعى بكلية الفنون التطبيقية عام ١٩٧٣ . أول فتاة تُعين معيدة بالقسم . ماجستير ودكتوراة فى اختيار الشكل الجمالى لتصميم الأثاث والخامات الجيدة . تدرجت حتى درجة أستاذة عام ١٩٩٢ . أعدت مشروعاً بالاشتراك مع أكاديمية البحث العلمى فى مدينة ٦ أكتوبر لاستخدام الطاقة الشمسية فى تجفيف الخضروات والفاكهة وتدريب الشباب على استخداماتها . صممت نماذج عملية لأجهزة السخانات والشوّايات والخلاطات .

٢٢ ـ د. سلوى ناظم محمد

مواليد ١٠ يولية ١٩٤٧ . أول سيدة تُعين وكيلة لكلية دار العلوم جامعة القاهرة . التحقت بكلية التجارة جامعة القاهرة ، ولكنها تركتها لكلية الآداب جامعة عين شمس لتتخرج فى قسم اللغات الشرقية قسم عبرى فى الستينيات الماضية . ولم تُعين معيدة رغم أنها كانت الأولى . عملت مذيعة فى الاستماع السياسى بالإذاعة وإذاعة فلسطين والبرنامج العبرى . تقدمت لكلية دار العلوم وتم اختيارها لتكون أول معيدة (سيدة) بها عام ١٩٧٠ ، حصلت على الماجستير عن (سفر زكريا ـ العهد القديم) من جامعة عين شمس عام ١٩٧٥ . الدكتوراة من لندن عن التركيبات النحوية لمروان بن جناح . مؤسسة قسم اللغة العبرية (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) . تدرجت فى السلك الجامعى حتى أصبحت وكيلة للكلية للبحوث والدراسات العليا . نائبة رئيس جمعية الأدب المقارن. خبيرة فى المجمع اللغوى.

٢٣ ـ د. سميحة عبد الوهاب

عالمة . بكالوريوس علوم قسم كيمياء عام ١٩٤٦ جامعة فؤاد الأول (القاهرة) . معيدة بعلوم القاهرة ثم معيدة بجامعة الإسكندرية . دكتوراة الكيمياء . عملت بالتدريس بكلية البنات بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ . أول المؤسسين لقسم الكيمياء بالكلية . أول رئيسة لقسم الكيمياء جامعة الكويت عام ١٩٨٦ . أستاذة بكلية البنات جامعة عين شمس وتقلدت منصب العميدة . كُرمت محلياً ومنحتها جامعة الكويت ميدالية ذهبية .

٢٤ ـ سميرة موسى

مواليد قرية سنبو الكبرى مركز زفتى محافظة الغربية فى ٣ مارس ١٩١٧ . استقر والدها بالقاهرة وألحقها بمدرسة قصر الشوق الابتدائية بحى الحسين وأقام لوكاندة وادى النيل بالعتبة ـ مازالت حتى الآن ـ حصلت على الابتدائية وكانت الأولى على القطر . التحقت بمدرسة بنات الأشراف (نبوية موسى) واحتضنتها نبوية موسى لمواهبها العلمية وكانت أيضاً الأولى فى البكالوريا (١٩٣٥) . التحقت بكلية العلوم جامعة فؤاد الأول (القاهرة) وحصلت على البكالوريوس (١٩٣٩) وعُينت معيدة بعد تدخل د. مصطفى مشرفة عميد الكلية ضد المعارضين لتعيين فتاة بهيئة التدريس . حصلت على الماجستير بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى حول التوصيل الحرارى خلال الغازات وتكييف الهواء. سافرت إلى إنجلترا (١٩٤٦) حصلت على الدكتوراة فى عامين فقط عن الأشعة البيئية من كلية بدفورد بلندن . سافرت فى منحة (١٩٥١) من برنامج أولبرايت للبحث فى معامل جامعة سان لويس الأمريكية وحققت نتائج باهرة فتلقت عرضاً للبقاء هناك ولكنها رفضت مفضلة العودة لمصر ولكنها لم تعد ؛ فقد لقيت حتفها فى حادث غامض عندما سقطت سيارتها فى هاوية سحيقة بينما نجا السائق ولم يظهر بعد ذلك . كان عمرها ٣٥ عاماً . أُطلق عليها مدام كورى المصرية .

مذكرات صلاح سالم

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ والمسألة السودانية

عرض : غريب السيد أحمد

بقاعة الدوريات بالهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، تقع فهرسة جريدة الشعب تحت رقم ٢٨٩٠ / ٢٨٩٢ ، التى صدرت من دار التحرير للطبع والنشر بين عامىّ ١٩٥٦و١٩٥٩ . وهى الجريدة التى نُشرت فيها مذكرات صلاح سالم على مدى ثلاثين حلقة ابتداءً من يوم ٤ يونية ١٩٥٦ وحتى يوم ٦ يولية من نفس العام، وقد أعلنت الصحيفة فى يوم السبت الموافق ٧ يولية أن المذكرات سيتم استئنافها يوم الإثنين ٩ يولية، لكن ذلك لم يحدث فى ذلك اليوم أو فى الأيام التالية.

وتأتى أهمية مذكرات صلاح سالم التى قامت د. صفاء شاكر بإعدادها وتحقيقها، تحت إشراف أ. د. أحمد زكريا الشلق الذى قدَّم لها بدراسة أكاديمية رصينة، بأنها المذكرات الشخصية التى نُشِرَت فى عهد عبد الناصر وليس بعد وفاته مثلما حدث لطوفان المذكرات التى خرجت للنور فى أعقاب تلك الوفاة، وأنها تعود لأول عضو توفاه الله من ضباط مجلس قيادة ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ عن عمر ناهز ٤١ سنة فى عام ١٩٦٢ .

جاءت المذكرات بعنوان «مذكرات صلاح سالم . . ثورة يولية والمسألة السودانية» فى ٣٣٨ صفحة من القطع المتوسط، عن مركز تاريخ مصر المعاصر، بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عام ٢٠١٢ ، من منطلق أنها تركزت على الإجراءات التى اتخذها صاحب المذكرات بعد أن تولى ملف السودان.

وصاحب هذه المذكرات هو «صلاح الدين مصطفى سالم» وُلِدَ فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ ، وتوفى فى ١٨ فبراير ١٩٦٢ ، وهو ينتمى لأبناء الطبقة الوسطى التى باتت قادرة على تعليم أبنائها وإدخالهم الكلية الحربية بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، وقد وُلِدَ فى «سنكات» لأبوين مصريين، حيث كان والده يعمل موظفاً لدى حكومة السودان، وقد عاش صلاح هناك حتى السادسة من عمره، حيث تلقى مبادئ تعليمه الأوَّلى فى كتاتيبها، ثم انتقل إلى القاهرة حيث تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة الحلمية الجديدة، ثم حصل على البكالوريا من مدرسة الإبراهيمية الثانوية بالقاهرة، والتحق بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول لمدة عامين، قبل أن يلتحق بالكلية الحربية الملكية، ليتخرج فيها ضابطاً عام

١٩٣٨وهو فى الثامنة عشرة من عمره. وقد بدأ حياته العملية بالخدمة ضابطاً بالقوات المصرية فى مرسى مطروح زمن الحرب العالمية الثانية، وفى أعقاب الحرب استكمل دراسته بكلية أركان الحرب ليتخرج منها عام ١٩٤٨، ثم شارك فى حرب فلسطين فى نفس العام، والذى فيه أيضاً انضم إلى تنظيم الضباط الأحرار فى ١٤ نوفمبر، وأصبح عضواً فى اللجنة التنفيذية للتنظيم، وبعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ وعندما نجح الضباط فى الاستيلاء على السلطة عاد صلاح سالم إلى العريش وظل خلال الأيام الأولى للثورة مسئولاً عن قوات الجيش فى فلسطين وسيناء وشرق القنال، وعند توزيع المناصب؛ استقر الرأى على أن تكون ضمن مسئولياته الإشراف على وحدة الجيش فى السودان. ومنذئذ بدأت صلته بالسودان وارتبط تاريخه بالمسألة السودانية بشكل كبير.

وفى نفس السياق، يذكر المؤرخ الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقى **أولاً**: إنه منذ احتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢ فرضوا سيطرتهم على السودان، وترضية للخديو عباس حلمى الثانى حتى يبتعد عن مصطفى كامل أبرموا اتفاقيتين لحكم السودان ثنائياً بين مصر وبريطانيا (فى ١٩ يناير و١٠يولية ١٨٩٩) وكان فى حقيقته حكماً إنجليزياً خالصاً وليس ثنائياً، لأن بريطانيا تختار الحاكم العام للسودان، وهو إنجليزى، وخديو مصر يصدر أمر تعيينه. **وثانياً**: إن إنجلترا انتهزت فرصة اغتيال الجنرال «لى ستاك» Lee Stack سردار الجيش المصرى فى السودان (١٩نوفمبر ١٩٢٤) لتُخرج الجيش المصرى من السودان، وظلت الحكومات المصرية تُطالب بعودة الجيش المصرى للسودان فى معظم المفاوضات التى جرت مع بريطانيا من عام ١٩٢٧وحتى عام ١٩٣٦ دون جدوى. **ثالثاً**: أن مصطفى النحاس باشا عندما ألغى معاهدة عام ١٩٣٦فى ٨ أكتوبر ١٩٥١، ومعها اتفاقيتا الحكم الثنائى للسودان أعدت حكومته مرسوماً بمشروع قانون بأن يكون للسودان دستور خاص تضعه جمعية تأسيسية تُمثل أهالى السودان، فما معنى أن يكون للسودان دستور بأيدى أبنائه؟ هل يعنى تبعية لمصر أم استقلالاً؟!. **رابعاً**: أن بريطانيا اشترطت فى مارس ١٩٥٣ للدخول فى مفاوضات مع حكومة يولية بشأن الجلاء أن تُوافق مصر على مبدأ استقلال السودان بمقتضى استفتاء.. فهل كان يتعين على مصر أن ترفض استقلال السودان الذى ضمه محمد على بالقوة عام ١٨٢٢، وهل من اللائق أن تقوم ثورة فى مصر تُطالب بالجلاء والاستقلال وتمنعه عن أهالى السودان؟!.

وكان الحاكم العام للسودان قد قام فى ٨ مايو ١٩٥٢، أى قبل ثورة يولية، بتسليم كل من بريطانيا ومصر مشروع للحكم الذاتى فى السودان، وأبلغ كلا الطرفين بأن هذا الدستور سيُصبح نافذاً بعد ستة أشهر من هذا التاريخ، أى فى ٨ نوفمبر ١٩٥٢، إذا لم ترد الدولتان بموافقتهما أو ملاحظاتهما على مشروع الدستور الذى يدعو إلى إقامة برلمان سودانى يُقرر مصير السودان.

وكانت بريطانيا قد وضعت لنفسها سياسة محددة تجاه السودان تسعى لفصله بشكل تام على أن يبدو ذلك قراراً سودانياً لأبناء الشعب السودانى، عبر تشجيع ودعم تيار الاستقلال فى السودان الذى كان يقوده حزب الأمة برعاية السيد عبد الرحمن المهدى، الذى كان يحمل موقفاً معادياً لمصر ويُحمِّلها مسئولية إسقاط الدولة المهدية فى عام ١٨٩٩، وهناك الكثير من الكتابات التى تُشير إلى طموح عبد الرحمن المهدى للحصول على استقلال السودان، وأن يكون هو ملكاً

عليه بعد ذلك، وأنشأ لهذا الغرض حزب الأمة السودانى وسعى إلى جعله قطباً للمطالبين بالاستقلال وعدم الارتباط بمصر بأية علاقة.

وفى المقابل كان هناك التيار الاتحادى المناصر للاحتفاظ بصيغة اتحادية مع مصر، ويتكون من حزب الأشقاء والحزب الاتحادى وبعض قيادات الطائفة الختمية التى كانت المنافس الرئيسى لطائفة الأنصار التى يقودها عبد الرحمن المهدى.

هكذا، جاء مشروع الحاكم العام البريطانى الذى كان يعتقد بأن الانتخابات المقترَحة سوف تأتى بأغلبية من حزب الأمة المتعاون مع السياسة البريطانية.

وفى ١٥أغسطس ١٩٥٢ اجتمع مجلس قيادة ثورة يولية واتخذ مجموعة من القرارات التى اعتُبرَت فى مجملها تعبيراً عن توجه جديد تجاه التعامل مع مسألة السودان:

أولاً: دعوة أحزاب السودان جميعاً إلى مصر للتفاهم معهم قبل تقديم أية مقترحات مصرية فيما يتعلق بمشروع دستور الحكم الذاتى المقدم من البريطانيين. وبذلك يُمكن قطع خط الرجعة على الجانب البريطانى وإبطال حجته فى القول بأن الجانب المصرى يهمل آراء السودانيين ولا يستشيرهم.

ثانياً: لا يقوم الحكم الذاتى للسودان بقرار من الحاكم العام، بل يكون خاضعاً لمفاوضات بين مصر وبريطانيا مؤيداً برأى الشعب السودانى.

ثالثاً: اعتراف مصر بحق السودان فى تقرير مصيره.

رابعاً: العمل على تعديل مشروع دستور الحكم الذاتى المقدم من الحاكم العام فى مايو ١٩٥٢ لضمان أكبر قدر من السلطات للسودانيين خلال فترة الانتقال التى تُمهد لتقرير المصير.

وكانت قناعة أعضاء مجلس قيادة الثورة أن الضرورة تُحتم أن يتم تمكين الشعب السودانى من تقرير مصيره، إما بالاتحاد مع مصر بأية صورة يختارها السودانيون، أو بالاستقلال الكامل، والذى اعتبرته ثورة يولية أفضل من أن يكون السودان مستقلاً استقلالاً صورياً، ويتحكم فيه البريطانيون ويحتلون أراضيه، ولذا اعترفت الثورة صراحة بحق السودان فى تقرير مصيره.

فاستمرت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية إلى أن تم الوصول بعد جهود مضنية، إلى اتفاق فى ٢١ فبراير ١٩٥٣ بإقامة الحكم الذاتى وممارسة السودان حق تقرير مصيره.

فى هذه الأجواء كانت مصر قد قامت بخطوة استباقية، رأت أنها ضرورية وذات تأثير كبير فى تقرير مستقبل السودان، فقامت بالسعى إلى توحيد الفصائل السياسية السودانية الداعية إلى الاتحاد مع مصر، والتى كانت تُعانى من عدم الانسجام. وقد توصلت المباحثات إلى إعلان توحيد كافة الأحزاب الاتحادية فى حزب واحد فى نوفمبر ١٩٥٢ تحت مسمى «الحزب الوطنى الاتحادى» وتم اختيار الأزهرى رئيساً للحزب ومحمد نور الدين نائباً له.

وقد كُلِّفَ الصاغ صلاح سالم عضو مجلس الثورة بالإشراف على تنفيذ قرارات المجلس تجاه السودان. فقام صلاح برحلته المشهورة وزار الجنوب فى ديسمبر ١٩٥٢ وتنقَّل بين المديريات المختلفة واستُقبلَ استقبالاً شعبياً ودياً، كما لقى الترحيب من أبناء القبائل الجنوبية. وفى هذه الرحلة قام صلاح سالم بمشاركة الجنوبيين فى الرقص عارى الصدر حيث انتشرت هذه الصورة على

نطاق واسع ، وسُمىَ آنذاك بالصاغ الراقص ، حيث أن نشاطه الهائل أزعج السلطات البريطانية ، حيث تمكن من اختراق الجدار الذى صنعه الاحتلال البريطانى حول الجنوب لسنوات طويلة ، كانت الفجوة قد اتسعت خلالها بين الشمال والجنوب ، وتم تكريس صورة معينة للعرب الشماليين ذات طابع سلبى ، وقد استطاع صلاح سالم الحصول على توقيعات من غالبية زعماء القبائل الجنوبية الكبيرة ورؤساء وأعضاء المجالس البلدية فى كافة المدن الرئيسية بتأييد مشروع الحكم الذاتى ووحدة الشمال والجنوب ، كما تمكن من الاتصال بكافة الأحزاب السياسية السودانية ذات التوجه الاتحادى مع مصر ، ووقف بقوة وراء دعم الحزب الوطنى الاتحادى فى الانتخابات حتى فاز بالأغلبية فى الجمعية التأسيسية ، غير أنه اتُهمَ بالإسراف فى إنفاق الأموال لدعم التيار الاتحادى ، وأن هذه الطريقة فى التقرب إلى السياسيين السودانيين أدت إلى شيوع صورة سلبية عن العديد من المتحمسين لقضية الاتحاد مع مصر .

ونتيجة لكثير من التطورات والأحداث ، وبعد أن تبيَّن أن اتجاه السودانيين بات واضحاً نحو اتخاذ قرار بالاستقلال التام ، الأمر الذى عُدَّ فشلاً لصلاح سالم فى مهمته ، مما أدى إلى تقديمه لاستقالته فى أغسطس ١٩٥٥ من موقع وزير شئون السودان الذى كان يشغله ، وأيضاً من عضويته فى مجلس قيادة الثورة .

وفى تعليقها على الأحداث ، أشارت السفارة الأمريكية بالخرطوم بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٥٤ تحت عنوان (السودانيون وصلاح سالم) إلى أن «عزل الصاغ صلاح سالم أحدث ضجة بين السودانيين ، ففى جانب عبَّر الأزهرى والقادة الاتحاديون عن قلقهم ، وفى الجانب الآخر عبَّر حزب الأمة عن فرحه نحو ما يُسميه (العدد رقم واحد) . وفسَّر كثير من السودانيين ما حدث بأنه نتيجة مشاكل بين صلاح سالم ورئيس الوزراء جمال عبد الناصر» .

ويعترف عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته بأن أغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة رأوا أن صلاح سالم لم يكن إلا منفذاً لسياسة المجلس فى السودان ، ولم تكن تلك سياسته هو ، وإنما كانت أخطاؤه فى التنفيذ فحسب .

وأخيراً اعترف صلاح سالم فى مذكراته ، بأن مصر أخطأت فى الاتفاقية ، عندما ساوت بين الاتحاد والاستقلال وجعلتهما متضادين ، وبهذا مكنت بريطانيا وأعطتها الفرصة ، أن تقف موقف المدافع عن استقلال أمة ، وتتظاهر بالنضال من أجل استقلال شعب .

إصـــــدارات

أوشك د . محمد رفعت الإمام على الانتهاء من آخر دراساته فى الشأن الأرمنى بعنوان «مسألة أضنة ومردودها فى مصر أبريل ١٩٠٩» . وتُعد هذه الدراسة الأولى من نوعها باللغة العربية ، والتى اعتمدت على طائفة من المصادر الحية المعاصرة . وانقسمت الدراسة إلى ثلاثة محاور : أولها خلفية مسألة أضنة فى الأستانة ، ثانيها أحداث مسألة أضنة ، ثالثها مردود مسألة أضنة فى مصر .

يونس القاضى ... فردوس الوطنية المفقود

بقلم : أحمد محمد إنبيوه

إن محاولة التنقيب عن الأسماء والشخصيات الثقافية المجهولة لنا ، والتى لعبت دوراً بارزاً فى التاريخ الثقافى المصرى ، هى مهمة أشبه بمهنة البحث عن اللؤلؤ فى أعماق المحيط . وذلك كان أول ما وقر فى ذهنى ، لدى مطالعة الدراسة الصادرة حديثاً عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ، عن يونس القاضى للباحثة د. إيمان مهران. فالحقيقة أن القاضى يعد لؤلؤة غاصت ولبثت طويلاً فى أعماق المحيط الثقافى المصرى، منتظرة اليد والعقل البحثى الذى يُعيد لها بعضاً من تألقها ، الذى كان لها وقت أن كان القاضى ملئ السمع والبصر فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين . يكفى الرجل أنه صاحب كلمات النشيد الوطنى المصرى ، وذلك كما أردفت مهران فى العنوان الفرعى لكتابها «مؤلف النشيد الوطنى المصرى وعصر من التنوير» . ومن ثم ، تغدو تجربة الكتابة عن القاضى ، تجربة شائقة وشائكة فى آن . وتجدر الإشارة إلى أننى سأعتمد بشكل كبير على كتاب د. مهران عن القاضى .

يُمكن القول بداية ، إن تاريخ الإبداع المصرى ، شهد عدداً من الشخصيات التى يُمكن وسم مشروعها وإنتاجها الإبداعى بـ «المتفجر» ، إذ أنها أسهمت فى أكثر من درب إبداعى ومعرفى ، ولاريب أن القاضى - كما سيتضح - بإنتاجه المتنوع ما بين : النصوص المسرحية ، والزجل الصحفى ، وكتابة الأغنية ، كان واحداً من تلك الانفجارات . إذن ، فمن هو هذا الرجل المتُشظى إبداعياً فى أكثر من مجال ؟ هذا ما سنجيب عنه فى القسم الأول من هذا المقال .

حياة يونس القاضى

فى ١ يولية ١٨٨٨ كانت النبضة الأولى فى قلب يونس القاضى ، وفى ١ يونية ١٩٦٩ كانت النبضة الأخيرة ، وما بين النبضتين الأولى والأخيرة كانت حياة حافلة لهذا الرجل . وقد ولد القاضى فى حارة درب الدليل بحى الدرب الأحمر ، وذلك أثناء زيارة والدته لمدينة القاهرة . أما عن النشأة ، فكانت فى قرية النخيلة مركز أبو تيج محافظة أسيوط . ولد القاضى لوالد أزهرى ، كانت مهنته قاضياً شرعياً ، والأم من أحياء القاهرة الفاطمية .

لقد كانت مصادفة قدرية ، أن يكون الأب أزهرياً وصديقاً وزميلاً لعدد من أعلام وأدباء وفقهاء زمانه . ومن ثم ، كانت الفرصة مواتية أمام القاضى لبناء قاعدة

باحثة ماجستير
آداب دمنهور

لغوية رصينة ، وثقافة عربية أصيلة متعددة المصادر والمشارب ، أفادت القاضى فيما بعد فى كتاباته الصحفية والزجلية والمسرحية . وهنا ندع القاضى يتحدث عن تلك السنوات الباكرة من حياته : «فى عام ١٩٠٠ ، كان عندى ١٢ عاماً ، فانتظمتُ فى الكتاب ، وحفظت القرآن . . . ثم أرسلنى أبى إلى الأزهر لأكون مثله ، وأوصانى بدراسة الأدب لأنظم الشعر ، وقال لى : بعد أن تكون شاعراً سأعطيكَ كتاباً به الفنون الشعبية فأدرسه عملياً ، وانظم الزجل ، فهو أرق من الشعر سلس العبارة ويحتاج إلى علوم البلاغة ، وخصوصاً علم البديع . . . وعملتُ بوصيته وسرتُ شوطاً بعيداً فى الشعر» .

وبذا ، أضحت موهبة القاضى على أهبة الاستعداد للانفجار الأول . وكان اشتعال أوار المشهد المصرى بالروح الوطنية هى المناسبة التى أتاحت لقلم الشيخ أن يهمس أولى همساته الصحفية والإبداعية . وقد بدأ القاضى مشواره الصحفى من جريدة «المؤيد» ، فكان يُراسلها منذ عام ١٩٠٥ بأسماء مستعارة . وظل الشيخ على هذا الحال إلى أن اختلف مع الشيخ على يوسف ، وانتقل على أثر ذلك للعمل فى صحف الحزب الوطنى . وهنا يُمكن القول ، أن مصطفى كامل كان هو الرجل الذى لعب دور القالبة التى تلقفت موهبة القاضى ، ويحكى الشيخ يونس القاضى عن ذلك فيقول : «كنا نقدس أفكار اللواء . وقد كان لقائى بالزعيم له قصة طريفة ، ففى أحد الأيام ذهبتُ إلى مقر الحزب الوطنى ، وفى ذهنى أن أقابل من يتحدث عنه كل الناس ، ودخلتُ على حجرة واسعة يجلس على مكتب بها شاب أنيق يلبس نظارة ذهبية أعتقدتُ أنه الزعيم ، فبدأتُ بالسلام ولكنه لم يرد ؛ فقد كان مشغولاً بتقليب بعض الكتب ، فجلستُ على طرف أحد الكراسى حتى يتفرغ من مهمته ، وفجأة دخل علينا شاب آخر يلبس بنطلوناً وقميصاً عليه (صديرى) ، سألنى : عايز مين يا أستاذ ؟ ، فأجبتُ : عايز أقابل الزعيم مصطفى كامل ، فرد : أنا مصطفى كامل . أذهلتنى المفاجأة ، وبعد أن أفقتُ منها قدمتُ له أول مقالاتى الوطنية ، فقال : المقالة كويسة وكلها حماس ، فرديت عليه : دى كلمتك (ظلموكى يا مصر) . . وأرسل مقالتى إلى المطبعة» . إذن ، يُمكن القول أن القاضى دخل معترك الكتابة السياسية من باب الوطنية مثله مثل الكثير من مثقفى وصحفيى ذلك الزمان ، فكانت تلك بمثابة المحطة المفصلية الأولى فى حياة القاضى . ومما يُمكن إضافته إلى ذلك ، أن القاضى فى تلك المرحلة لعب دور المبسِّط لخطاب الزعيم مصطفى كامل الفصيح والإفرنجى ؛ إذ أنه أنشأ ما يربو على أربعة عشر جمعية ـ نادى أدبى بلغتنا الحالية ـ ، هدفها تعليم الخطابة وإجلاء ما خفى من معانى ومضامين فى خطاب الزعيم .

تلك إذن كانت مرحلة التهوج الأولى فى مسيرة القاضى الصحفية ؛ إذ أنه بعد أن تقلّب فى صحف الحزب الوطنى ، اتجه للعمل فى صحف ومجلات كالسيف والمسامير ، ثم حرر فى الكشكول والعقاب وإياك ، إلى أن استقر به المقام زجالاً فى اللطائف المصورة ، وقد أحب الشيخ يونس العمل بها كاتباً وزجالاً وكان ضمن فريق التحرير فيها وقد شغل منصب رئيس تحرير القسم الفنى بها ، وكانت أزجاله تُنشر أسبوعياً منذ عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٤٢ ، وكان زجل الشيخ يونس السياسى يُنشر تحت رسوم صاروخان رسام الكاريكاتير الشهير . كما شغل الشيخ منصب رئيس تحرير مجلة مصر عام ١٩١٩ . كما أن الشيخ يونس القاضى أصدر مجلة بإسم مجلة الفنان عام ١٩٢٦ ، وكان من ضمن كتابها فكرى أباظة ، كما عمل فى المجلة أيضاً رخا رسام الكاريكاتير . إلى ذلك يُمكن القول أن

القاضى حقق نجاحاً ملموساً فى عمله كصحفى ، أسهم فى توطيد علاقاته بالأوساط الفنية والأدبية ، مما سيُساعده على البروز كمبدع وشاعر وكاتب مسرحى .

كان عقد الأربعينيات يحمل للقاضى نقلة مهمة فى مسيرته المهنية ؛ إذ أنه شغل وظيفة رقيب على المصنفات الفنية ، أو بالأحرى المسارح والملاهى بلغة العصر ، وذلك من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٥٤ . ويروى القاضى فى الأحاديث الصحفية التى أجريت معه فى الستينيات قصة توليه هذا المنصب ، فنكتشف أن الرجل قبل المنصب فى لحظة «عشم» من صديق - كان الصديق محمود غزالى مدير الأمن العام ساعتها - ، ورغم عدم معقولية أن يكون «العشم» هو السبب الوحيد ، فإن هذا هو ما ذكره القاضى ، لكنه يذكر أيضاً أنه «حكم على نفسه بالإعدام فى لحظة ضعف أمام صديق» ، ومما يُذكر أن القاضى أثناء عمله كرقيب ، منع نشر أو إذاعة أغانيه ، المتهمة بالخلاعة ، مثل أغنية «ارخى الستارة» . وقد نجح القاضى - نسبياً - فى ضبط إيقاع الإنتاج الفنى ؛ فقد كان القاضى أحد أسباب توقف سيل المسرحيات الهابطة ، وأيضاً أحد أسباب توقف الملحنين عن إنتاج أغنيات اتُهمت بأنها تُسئ وتجرح الذوق العام . ولكن ذلك المجهود الرقابى أثر سلباً على الإنتاج الإبداعى ليونس القاضى ، فقد «حكمتُ على نفسى بالإعدام دون مبرر ، وقبرتُ نفسى بيدى» . وقد استمر القاضى رقيباً حتى عام ١٩٥٤ ، وعن تلك الفترة نجد القاضى يقول : «فى تلك الفترة نسينى الناس ، وكادت الإذاعة تضن بذكر اسمى وهى تذيع الأغانى التى ألّفْتُها» . وكالعادة مع كثير من مبدعينا عندما تنحصر عنهم الأضواء فى آخريات حياتهم ، يتحولون إلى ركام أو متاع زائد على هامش الحياة ؛ وهكذا كان الحال مع القاضى ، ففى أحد الحوارات التى أجريت معه فى ستينيات القرن العشرين يصف المحرر حال الرجل بقوله : «يونس القاضى يعيش الآن فى شقة ضيقة فى شبرا . الكلمات تتلعثم على لسانه ، وهو يروى متاعبه وآلامه . ولكن أعصابه تخونه ، وتجرى الدموع على خديه ويقول : أنا أعيش فى ضياع . أريد أن تمر أيامى بسرعة . صرفتُ كل ما أملك على الأدوية والعلاج ، الخوف من الأيام يُطاردنى . إن آلامى من الناس فاقت كل ما تجمع فى جسدى من أوجاع ! ورغم عبء السنين الأربع والسبعين التى يحملها على كتفيه ؛ تراه مايزال يعمل ليكسب قوت يومه . لقد كتب أربع مسرحيات جديدة قدّمها لوزارة الثقافة والإرشاد القومى منذ ثلاث سنوات . وبعد ذلك لم يتلق من الوزارة رداً على مصير تلك المسرحيات الأربع ! وقدّم إلى التلفزيون منذ ستة شهور اثنتى عشرة قصة لتكون نواة لبرامج تلفزيونية ، فلم يتلق إلى الآن أى جواب على مصير هذه الدستة من القصص» . هذه إذن كانت حياة الرجل ، حياة حافلة وثرية ، فهل كان إنتاجه وإبداعه بمثل حياته؟ هذا ما سيجيب عنه القسم الثانى من المقال .

إبداع يونس القاضى

ثمة قلائل فى السجل الإبداعى المصرى ، هم من انغمسوا بإبداعهم فى تفاصيل الواقع المصرى ، فاستطاعوا التعبير عنه تشريحاً وتحليلاً ونقداً دون أى مكياج أو مساحيق تخفى البثور والأماكن غير المضيئة فيه . ولاريب أن القاضى كان واحداً من هؤلاء ، وذلك عبر ما يربو على ٥٨ نصاً مسرحياً ، و٢٠٠ أغنية وطقطوقة وموشح ، كان أغلبها قد سُجِّل على إسطوانات بأصوات كبار مطربين العصر ، كمنيرة المهدية وزكى مراد وسيد درويش وغيرهم . ومن ثم ، وحتى نتثبت من صحة تلك المقولة يجدر بنا أولاً أن نغوص فى أعماق عملية قراءة إنتاج القاضى ، وأن نتوقف قليلاً أمام «النبع» الذى كان ينهل منه القاضى ، أو بالأحرى العوامل التى أثرت فى تكوينه الفنى وأضحت نبعه بعد ذلك .

كانت قريحة القاضى تتكئ على أكثر من مصدر ، لعل أولها النشأة فى حجر أب محب للعلم والمعرفة شغوف بالقراءة يشغل أوقاته بالأدب ونظم الشعر . وثانى تلك المصادر كان البيئة والمكان ، من بيئة قروية صعيدية بسيطة إلى أجواء مدينية شعبية بسيطة ، ألقت بظلالها التأثيرية على إدراك القاضى للذائقة الشعبية . وارتبط بذلك دراسته فى الأزهر . أما عن ثالث تلك المصادر ، فهى المشاعر الوطنية التى شكلت الخزان الذى استمد منه القاضى الشرارة الأولى لكتاباته ذات المسحة الوطنية ، وقد تفاعلت تلك المصادر فى داخل عقل ونفس القاضى ، والسؤال كيف كان تأثير ذلك على كتاباته ؟ ، هذا ما سنُحاول قراءته الآن .

القاضى مؤلفاً للأغانى

إن تأليف الشعر المغنى فى مصر مر بمراحل متعددة ؛ حيث يُعد الشيخ يونس القاضى فاصلاً بين مرحلة وأخرى ؛ فقد كان أول مؤلف للأغنية المصرية الصميمة المستلهمة من بيئتها ، وقد أكمل المسيرة المبدع بديع خيرى والعبقرى بيرم التونسى وتوالى بعدهم عشرات المبدعين وعلى رأسهم صلاح چاهين .

أما عن كيف دخل الشيخ يونس عالم التأليف الغنائى ؟ فوجئ الشيخ يونس ذات يوم بمندوب من شركة بيضافون للإسطوانات يعرض عليه أن يحتكر جهوده فى تأليف الأغانى وتسجيلها على إسطوانات . وكان يونس القاضى يعتقد أن اهتمام الشركة راجع إلى شهرته كمؤلف للأزجال التى تُنشر فى المجلات ، ولكنه اكتشف أن سر هذا الاهتمام يرجع إلى اهتمام حنفى محمود باشا بأزجاله ، فاقترح على شركة بيضافون استغلال مواهب هذا الزجال فى تأليف الأغانى ، ولم يكد يبدأ العمل مع شركة بيضافون حتى تهافتت عليه جميع شركات الإسطوانات . وقد تعاون الشيخ أيضاً مع شركات كايروفون ، كولومبيا ، يوسف سمحون ، ميشيان .

وتجدر الإشارة أن حناجر نجوم ذلك الزمان قد داعبت كلمات الشيخ ، فغنى له عدد من المشاهير وهم : عبد اللطيف البنا ، زكى مراد ، سيد درويش ، محمد عبد الوهاب ، محمد أنور ، سيد مصطفى ، عبد القادر قدرى ، وغيرهم . أما المطربات فغنت له السيدات منيرة المهدية ، فتحية أحمد ، نعيمة المصرية ، حياة صبرى ، هانم المصرية ، الست تودد ، الآنسة أم كلثوم ، الآنسة زينب بدران ، وغيرهن . كما لحن كلماته داود حسنى ، كامل الخلعى، محمد القصبجى، سيد درويش ، زكريا أحمد ، محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطى .

هذا وقد كان للقاضى باع فى كتابة كلمات الأغنية الوطنية . وقد بدأ فى كتابة الأغنية الوطنية فى سياق الكفاح ضد الاستعمار . وقد أثرت نشأته فى بلاط جريدة اللواء على يدىّ الزعيم مصطفى كامل ، فى فكره وتوجهاته ؛ حيث اكتسب القاضى من الزعيم أهمية وخطورة الكلمة فى نفوس الجماهير . وعندما تعرف الشيخ يونس على الشيخ سيد درويش وجد ضالته ؛ حيث اجتمعت عبقريتا الكلمة واللحن ، فأُنجزتا فى سرعة الزمن إبداعات خُلِّدت فى الذاكرة الجماعية المصرية . وقد كانت ثورة ١٩١٩ فرصة جديدة كى يصل القاضى لذروة من ذُرى التوهج الإبداعى الوطنى ، إذ أنها قد أعادت اكتشاف القاضى . فكتب أغنيات : «أهو دا اللى صار» ، «يا بلح زغلول» ، «وشال الحمام حط الحمام» ، «يا عزيز عينى» ، وإلى جانب ذلك ألّف القاضى «الأيقونة الغنائية» لثورة ١٩١٩ ، وهو نشيد «بلادى بلادى» وله قصة .

فى ظل أجواء ثورة ١٩١٩ ، كان المصريون يتظاهرون وهم يهتفون ضد الإنجليز والاستعمار . وقد

رأى سيد درويش أن تُترجم هذه المظاهرات والهتافات فى نشيد واحد يُردده الجميع . فاقترح على صديقه يونس القاضى أن يُؤلف كلمات مناسبة ، فوجد القاضى نفسه واقعاً فى أسر كلمات كان الزعيم مصطفى كامل قد صدّرها فى خطبة له ألقاها فى الإسكندرية إبان أكتوبر ١٩٠٥ ، وكان مطلعها «بلادى بلادى لكِ حبى وفؤادى ، لكِ حياتى ووجودى ، لكِ دمى ونفسى ، لكِ عقلى ولسانى ، لكِ حبى وحياتى ، فأنت أنت الحياةَ ، ولا حياة إلا بكِ يَا مصر» . وقد تواترت الكتابات فى نسب كلمات هذا النشيد ما بين بديع خيرى وسيد درويش ، غير أن دليل ملكية الشيخ يونس القاضى لكلمات هذا النشيد يرجع لوثيقة سُجلت فى المحكمة المختلطة ، وكان ذلك فى ٢٦ يناير ١٩٢٣ ، وكان سبب التسجيل إنشاء جمعية المؤلفين والملحنين ، مما جعل مؤلفى وملحنى الأغانى يجمعون إنتاجهم ليُسجل فى الجمعية بعد ذلك . وكان التوثيق فى المحكمة وثيقة الملكية التى استند لها الشيخ يونس وأبناؤه من بعده ليحصلوا على حق الأداء العلنى عن هذه الأغانى .

مسرح القاضى

أنتج القاضى ما يربو على ٥٨ نصاً مسرحياً - رواية تمثيلية بلغة العصر - كتب أغلبها فى إطار الكفاح ضد الاستعمار وفى إطار المشروع النهضوى نحو مسرح مصرى وأدب مصرى . لذا ، فقد حملت نصوص القاضى مغازى سياسية واجتماعية واضحة . أضف أن القاضى كان يدعم فنياً مسألة وجود اقتصاد وطنى وصناعة وطنية قوية ، تكون خطوة على طريق الاستقلال . وفى هذا الإطار يروى القاضى قصة تركت بصماتها التأثيرية على نفسه وظهرت فى اختياراته للموضوعات التى عالجها بنصوصه المسرحية . يروى القاضى : «فى عام ١٩١٨ اعتقلتنى الداخلية أنا والأستاذ أمين الرافعى والأستاذ سيد على صاحب جريدة النظام . وفهمتُ أن السلطات الإنجليزية طلبت اعتقالنا وتأديبنا . وقدمونا بعد بضع ساعات لوكيل الداخلية الذى صاح فى : إنت مش عارف إننا تحت الاحتلال الإنجليزى ، وكنتُ أرتدى الجبة والقفطان فمد يده فى الجبة وقال : دور إزاى تعمل جبة فى بلدكَ الأول . وقد ظل هذا الكلام فى رأسى إلى أن بدأتُ أكتب الروايات التمثيلية» .

إذن ، فقد أبدع القاضى أدباً مسرحياً يمس شغاف الواقع المصرى ، لكن السؤال ، كيف حدث الانتقال لدى القاضى من الكتابة الزجلية إلى الكتابة المسرحية ؟ يجيب القاضى فى حوار صحفى له : «فى يوم من الأيام قابلنى الأستاذ فوزى الجزايرلى وكان فى هذا الوقت يعمل رئيس شركة الألحان مع السيدة منيرة المهدية . فقد ظل يبحث عنى لأنه ألّف فرقة مسرحية ويحتاج أن أعد له رواية ، فقلتُ له : غداً سأحضر لكَ رواية مصرية صحيحة . فى الحقيقة لم أكن قد ألفتُ روايات قبل ذلك . وكانت البداية برواية «مظلوم يا وعدى» ، وكان موضوعها يحكى عن نائب عمدة يُعد مكيدة للعمدة لكى يحل محله . وقد عرضت هذه المسرحية على مسرح الكلوب المصرى» .

وقد كانت موضوعات مسرحيات القاضى تتسم بالطابع السياسى ، وترنو غالباً لمصر ، لذا فقد عُد الرجل رائداً من رواد المسرح السياسى المصرى فى القرن العشرين . على جانب آخر ، عالجت كثير من مسرحياته المشكلات الاجتماعية فى المجتمع المصرى . فقد أكد على أهمية الصناعة والاستثمار الوطنى وإقامة البنوك المصرية دون الاستعانة بالمال الأجنبى . وكان يحس الناس على العمل وإقامة النقابات ، والحد من التعاون مع الأجانب . وكانت عروضه فكاهية فى

شكلها أو اجتماعية معتمدة على قصة إنسانية ، أو دراما عاطفية ، ولكنها كانت تحمل فى طياتها مضامين ثورية للوصول إلى هدف سياسى دون المرور على مشكلات مع الرقابة البريطانية . وبالطبع كانت سخونة الأحداث السياسية فى تصاعد ، وهو ما أسهم فى تزايد الانفعال مع هذه العروض ، لنجد المظاهرات تخرج عقب انتهاء العروض ، وفى الوقت الذى كانت تُقدّم مسرحيات تُغازل الشهوة والرغبة كانت النبرة الوطنية تسم مسرح القاضى . ويكفى أن تُطالع أسماء بعض مسرحيات القاضى لنصل إلى ذلك الاستنتاج ، مثل «أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا» و «كلام فى سرك» و «كلها يومين» و «إدينى عقلك» . والمطالِّع لتلك المسرحيات يُدرك المكانة المركزية التى لعبتها الأغنية فى البناء المسرحى . فقد كان القاضى يعتبر الأغنية النواة ومادة الغزل التى يبنى عليها هيكل المسرحية الأساسى . ومن الجدير بالإشارة هنا أن القاضى لم يكن متفرداً بذلك الشكل . فقد كان المعتاد فى العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين ، أن يتخلل النص المسرحى عدد من الأغنيات قد تصل إلى احدى عشر أغنية . وربما كان الهدف الأكبر من ذلك ، جذب مزيد من الجمهور . وفيما يلى بعضاً من كلمات الأغنيات التى كانت مبثوثة بين ثنايا مسرح القاضى : أغنية إدينى عقلك من مسرحية الثالثة تابتة «يا أبويا إدينى عقلك . . الأجنبى بدو يكلك ، لو شفته فى البورصة وقابلك . . سلم عليه وعد صوابعك ، فى المنشية دول حرامية . . ويسرقوا الكحل من العين» . أغنية أخرى من مسرحية كلها يومين «تقول صابحة الزبدة . . بلدى الزبدة ، يا ولاد بلدى . . زبدة يا ولدى ، اشترى وأوزن . . عندك واخزن ، وأوع تبيعها ولا تودعها ، عند اللى يخون . . لتعيش مغبون ، وأزاى ما تهون . . بلدى» . تلك فقط كانت أمثلة لكتابات القاضى الغنائية فى نصوصه المسرحية . وفى إطار متواز ، إطار الحديث عن كلمات أغانى القاضى ، يتبقّى الحًديث عن أغانى القاضى الموصوفة بـ «الهابطة» .

فى ظل أجواء الحرب العالمية الأولى ، وفى خلال العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين ، كتب القاضى كلمات عدد من الأغانى أضحت - فى تحليل الكثيرين - الأيقونة الرئيسية لانحدار الذوق العام . فقد اشتهر القاضى بأنه الزجال صاحب أغنيات : «ارخى الستارة» ، «بعد العشا يحلى الهزار» ، «تعالى يا شاطر نروح القناطر» ، «الأستيك على صدرك يضوى» ، «الساعة كام» . والملاحظ أن تلك الأغانى تقترب من الذوق الشعبى ، دون أية رتوش أو تكلف أو حتى معالجة فنية تخفى فجاجة المعنى ، ورغم الاعتراض - النقدى - على كلمات الأغنيات ، إلا أنها كانت فى زمانها ابنة السياق الثقافى والاقتصادى والاجتماعى السائد . وعندما كان القاضى رقيباً فإن أغانيه المتهمة بالإباحية ؛ نالها ما نال مثيلاتها ، رغم أن رأى القاضى فيما قال أنها «أشبه بالبنت الشريفة التى ساءت سمعتها ظلماً بين الناس» . وعلى جانب آخر برر زكريا أحمد ملحن أغنية ارخى الستارة تلحينه لأغانى من هذا النوع بسبب سوق الإسطوانات وأنه سبيل للارتزاق .

فى الختام بقى أن نقول أن من لا يعلم من هو يونس القاضى ؟ يكفى أن يعلم أنه مؤلف النشيد الوطنى المصرى ، ويا بلح زغلول ، وأهو دا اللى صار ، ويا عزيز عينى . تلك الأغنيات التى اقترنت باسم سيد درويش ، وغفلنا عن اسم مؤلفها ، إنه الشيخ يونس القاضى الرجل الذى كاد يسقط من الذاكرة الموسيقية المصرية فكانت دراسة د. إيمان مهران ، بمثابة قبلة الحياة التى أعادت استكشاف أحد الأسماء المجهولة فى تاريخنا المصرى العام .